رسالة في

التوبة

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تحقيق
حسين إسماعيل حسين الجمل



الطبعة الأولى بمكتبتنا
(١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)

الناشر

مكتبة التوعية الإسلامية
لإحياء التراث الإسلامي

ناصية شارع محمد عبد الهادى - الجوهرة - الطالبية - جيزة
ت : ٨٦٨٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ،من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد

فإن أصدق الحديث كتابُ الله ، وأحسن الهدى هَدْى محمد ﷺ ، وشرُّ الأمور محدثاتها ، وكلُّ محدثة بدعة ، وكلُّ بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

« التوبة يقظة من نوم الغفلة ، وإنما تكون بملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة ، فإذا شاهد القلب عظمة تلك النعم وكثرتها ، وشاهد مِنَّة الله عليه بها من غير استحقاق ولا استجلاب لها بثمن ، ثم شاهد مع ذلك استعماله هذه النعم فيما يغضب مولاه ، ولا يحبه ويرضاه ، أوجب له ذلك انتباهاً من نوم الغفلة ، فينظر إلى ما سلف منه من الإساءة والظلم لنفسه . ويعلم أنه قد فرَّط فى طاعة مولاه وربه وأنه أيضاً مؤاخذ بما قدَّمت يداه ، وقد ذمَّ الله تعالى فى كتابه من نسى ما قدَّمت يداه ﴿ ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربِّه فأعْرَضَ عنها ونسِىَ ما قدَّمتْ يداه ﴾ [الكهف : ٥٧].

فلا ملجأ ، إذن ، ولا منجا من اللّهِ إلا إليه تعالى ، إذ إنه سبحانه وحده المنعم المتفضّل - على الحقيقة - فيرجع العبد على نفسه باللوم والإزراء ، إذ قد غفل عن شكر نعم مولاه ، بل وزاد على ذلك فاستعملها فى غير طاعة ربه ، فيصير العبد متحققاً - بعد ذلك الشهود - بـ « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ ، أبوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

فيعلم العبد حينئذ أن التوبة حقٌّ واجبٌ للّه تعالى عليه ، وأنها هى أول مقام العبودية ، وبداية منازل السالكين إلى المولى سبحانه ، فإذا استمع العبد

لداعي الرحمن وهو قوله : ﴿ قل ياعبادىَ الذين أسرَفُوا على أنفُسِهم لا تَقْنَطُوا من رحمةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً إنّه هُوَ الغفورُ الرَّحيمُ . وأنيبُوا إلى ربِّكم وأسلِمُوا له من قبلِ أن يأتيكم العذابُ ثم لا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر ٥٣: ٥٤] وطالع مع ذلك جنايته ، شمَّر لاستدراك الفارط بالعمل ، وتخلَّص من رقِّ الجناية بالاستغفار والندم . وطلب التمحيص أى تخليص إيمانه ومعرفته من خَبَثِ الجناية ، كتمحيص الذهب والفضة ، ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص»(١) .

ولا يحسبنَّ أحدٌ أن التوبة مقصورة على صِنف معين من العباد ، فهى فى الحقيقة تشمل جميع العباد على مختلف مراتبهم ودرجاتهم لقوله تعالى: ﴿ وتُوبُوا إلى الله جميعاً أيُّها المؤمنون لعلَّكم تُفْلحونَ ﴾ [النور : ٣١] .

فلا يزال العبد مأموراً بالتوبة حتى الممات ،وإذا كانت طريق الطاعات والأعمال الصالحة تفتح للعبد أبواباً من المحبة ، إلا أن "طريق التوبة"، وماتستلزمه من الانكسار بين يدى الرب تعالى والافتقارإلى عفوه وغفرانه ، مع مطالعة حلم الله عنه مع قدرته عليه ، فإن هذا الطريق أسرع الطرق إلى الله تعالى ، وهو يسمى بـ « طريق الطير » يسبق التائب بها السُّعاة (٢) .

فالتوبة إذن من مهمات الإسلام ، وقواعد الدين ، لذا فقد استحضرتُ النية فـــى إفراد مسائل « التوبة » فى رسالة مفردة ليطالعها كلُّ أواب منيب أتناول فيها بعض قصص التائبين ، تشويقاً إلى أخبارهم ، وترغيباً فى الاقتداء بهم فى صدق توبتهم ، وأسأل ربى عز وجل أن تنشر قريبا ، أما هذه الرسالة التى بين أيدينا فهى رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمـــن « جامع الرسائل » - المجموعـة الأولـى ، ط - ١٣٨٩هـ /١٩٦٩م للدكتور : محمد رشاد سالم ، رحمه الله ، الذى أشار بدوره أن هذه الرسالة ضمن كتاب « الكواكب الدرارى » لابن عروة الحنبلى ، وتضم خمس رسائل هى :

١- رسالة « الحلاج » .

٢- رسالة « التوبة » : موضوع الدراسة .

---

(١) راجع كتاب « مدارج السالكين » للعلامة ابن القيم (١٧٨/١) وما بعدها من مقام التوبة .

(٢) مدارج السالكين لابن القيم .

٣ - رسالة « الشكر » .

٤ - رسالة « العدل » .

٥ - رسالة « الصفات » .

وتقع رسالة «التوبة » فى الجزء رقم (٥٦٧) من « الكواكب الدراري » الذى يبلغ حجمه ما يقرب من خمسين مجلداً أكثرها فى المكتبة الظاهرية بدمشق(١) .

وقد اطلعت على رسالة « التوبة » كلها ، فاخترت أن أقوم بتحقيقها ، وكان على النحو التالى :

١- إقامة النص وضبطه .

٢- تخريج الآيات الواردة فى النص .

٣- تخريج الأحاديث النبوية التى سردها شيخ الإسلام ، مع بيان درجة كل حديث من الصحة والضعف ، وهذا ماتمتاز به هذه الطبعة من طبعة د . محمد رشاد سالم رحمه الله .

٤ - أثبت عناوين جانبية لتوضيح المراد من كل فقرة ذات وحدة موضوعية وهذا ما استفدته من مطبوعة د. محمد رشاد .

والله تعالى أسأل أن يجعل عملى هذا صالحا ، ولوجهه خالصاً ، وأن يثقل به يوم الحساب ميزانى ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وكتب / حسين إسماعيل حسين الجمل

الإسماعيلية محرم ١٤١٠ هـ .

* * *

(١) جامع الرسائل لابن تيميه تحقيق محمد رشاد سالم .

بسم الله الرحمن الرحيم

« رسالة فى التوبة »

• بعض آيات التوبة فى القرآن :

قال الإمام العلامة شيخ الإسلام « تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية » رحمه الله :

الحمد لله ، نحمده ، ونستعين به ونستهديه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضللْ فلا هادى له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً . صلى الله عليه وعلى آله وسلّم تسليماً .

قال الله تعالى : ﴿ الَر كتاب أحكمت آياتُهُ ثم فصِّلتْ من لدن حكيم خبير * ألاّ تعبدوا إلا اللّهَ إننى لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم تُوبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمًّى ويؤتِ كلَّ ذى فضلٍ فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يومٍ كبير ﴾ [هود ١-٣] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربِّكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تُنصرون * واتَّبِعُوا أحسن ماأُنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكمُ العذابُ بَغْتة وأنتم لا تشعرون ﴾ [الزمر ٥٣-٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا تُوبُوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربُّكم أن يُكفِّرَ عنكم سيئاتكم ويُدخلكم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار يوم لايُخزى اللّهُ النّبىَّ والذين آمنوا معه نورُهُم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ [التحريم : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ وتُوبُوا إلى اللّه جميعاً أيُّها المؤمنون لعلّكم تفلحون ﴾ [النور ٣١] وقال تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النّبىِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العُسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوبُ فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت وضاقت عليهم أنفسُهُمْ وظنُّوا أن لا ملجأ من اللّهِ إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن

الله هو التواب الرحيم ﴾ [التوبة ١١٧ - ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ٭ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقرٌ ومتاعٌ إلى حين ٭ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ [البقرة ٣٥ - ٣٧] .

وقال تعالى فى السورة الأخرى : ﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ٭ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾ [الأعراف ٢٢ - ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ٭ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ [طه ١٢١- ١٢٢] .

وقال تعالى عن نوح إنه قال لقومه : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ٭ يُرسل السماءَ عليكم مدراراً ﴾ [نوح ١٠ - ١١] .

وقال عن نوح : ﴿ ربِّ إنى أعوذ بك أن أسالكَ ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ [هود ٤٧] .

وعن هود : ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم تُوبُوا إليه يُرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ [هود ٥٢] .

وعن صالح : ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾ [هود ٦١] .

وكذلك قال شعيب : ﴿ واستغفروا ربكم ثم تُوبُوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾ [هود ٩٠] .

وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربَّنا اغفرْ لى ولوالديَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ [إبراهيم ٤١] .

وقال : ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدِّين ﴾ [الشعراء ٨٢] .

وقال : ﴿ وأرنا مناسكنا وتُبْ علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ [البقرة ١٢٨] .

وقال عن موسى عليه السلام : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضلٌ مبين ٭ قال ربِّ إنى ظلمتُ نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [القصص ١٥-١٦] .

وقال موسى : ﴿ ربِّ اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ [الأعراف ١٥١] .

وقال موسى : ﴿ سُبحانك تبتُ إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ [الأعراف ١٤٣] .

وقال تعالى لموسى : ﴿ لا تخف إنى لا يخاف لدىَّ المرسلون * إلا من ظلم ثم بدَّل حُسْناً بعد سوءٍ فإنى غفور رحيم ﴾ [النمل ١٠-١١] .

وقال موسى : ﴿ أتُهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتُك تُضِلُّ بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت وليُّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتبْ لنا فى هذه الدنيا حسنةً وفى الآخرة إنا هُدْنا إليك قال عذابى أُصيبُ به من أشاء ورحمتى وَسِعَتْ كلَّ شىء فسأكتُبُها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبىَّ الأمىَّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ [الأعراف ١٥٥-١٥٧] .

وقال لخاتم الرسل : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [محمد ١٩] .

وقال : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّرَ ﴾ [الفتح : ١-٢] .

وقال تعالى : ﴿ إن اللهَ يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهِّرين ﴾ [البقرة ٢٢٢] .

وقال : ﴿ حم * تنزيلُ الكتاب من اللهِ العزيز العليم * غافرِ الذَّنب وقابلِ التوبِ شديد العِقابِ ذى الطَّوْلِ لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ [غافر ١-٣] .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذى يقبل التوبةَ عن عبادِهِ ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ ويزيدهم من فضله ﴾ [الشورى ٢٥ - ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ وآخرون اعترفوا بذُنُوبهم خَلَطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم * خُذْ من أموالهم صدقةً تطهِّرهم وتزكِّيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عبادِهِ ويأخُذُ الصَّدقات وأن الله هو التواب الرحيم * وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردُّون إلى عالم الغيب والشهادةِ فينبئكم بما كنتم تعملون * وآخرون مُرْجَوْنَ لأمر الله إما يعذِّبُهُم وإمَّا يتوبُ عليهم والله عليم حكيم ﴾ [التوبة ١٠٢-١٠٦] .

* **بعض الأحاديث فى التوبة :**

١- وفى صحيح مسلم عن أبى بُردة عن الأغرِّ عن ابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « يأيها الناسُ توبوا إلى اللهِ ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

٢- وعن أبى بُردة عن الأغر المزنى قال : قال رسول الله ﷺ « إنه ليغانُ على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » .

٣- وقال : « [والله] إنى لأستغفرُ الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرةً ».

٤- وقال : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوبَ مُسىءُ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوبَ مُسىءُ الليلِ حتى تطلع الشمسُ من مغربها » .

٥- وقال :« من تاب قبل أن تطلع الشمسُ من مغربها تاب الله عليه » .

٦- وقال : « للّهُ أشدُ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامُهُ وشرابُهُ ، فأيسَ منها ، فأتى شجرةً فاضطجع فى ظلِّها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدّة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربُك ، أخطأ من شدّة الفرح ».

وهذا الحديث متواتر عن النبى ﷺ ، رواه ابن مسعود ، والبراء بن عازب ، والنعمان بن بشير ، وأبو هريرة وأنس بن مالك .

٧- ففى « الصحيحين » عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « للّهُ أفرحُ

١- رواه مسلم (٢٧٠٢) .

٢- رواه مسلم (٢٧٠٢) .

٣- رواه البخارى (٨٣/٨) وما بين الحاصرتين من « الصحيح » .

٤- رواه مسلم (٢٧٥٩) .

٥- رواه مسلم (٢٧٠٣) .

٦- رواه مسلم (٢٧٤٧) .

٧- رواه البخارى (٨٤/٨) ومسلم (٢٧٤٤) واللفظ لأحمد (٣٦٢٧) .

بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دَوِّيَّة مُهْلكةٍ ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزاده وما يُصلحه ، فاضلَّها ، فخرج فى طلبها ، حتى إذا أدركه الموت ولم يجدها قال: أرجعُ إلى مكانى الذى أضللتُها فيه فأموت فيه ، فأتى مكانه فغلبته عينه ، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه » .

٨- وفى السنن أنه ﷺ قال : « كل بنى آدم خطَّاءٌ ، وخير الخطَّائين التوَّابون » .

٩- وقال : « ن العبد إذا أذنب نُكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، فذلكم الران الذى ذكر الله ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ﴾ » [المطففين ١٤] .

١٠- وعن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلا اللَّمم ﴾ [النجم ٣٢] قال رسول الله ﷺ : «إن تغفر اللَّهم تغفر جماً وأىّ عبدٍ لك لا ألمَّا » .

١١- وعن ابن عمر قال : إن كنا لنعدّ لرسول الله ﷺ فى المجلس [الواحد] يقول : « رب اغفر لى وتبْ علىّ إنك أنت التواب الغفور » مائة مرة . رواه أحمد والترمذى وقال : حديث صحيح .

* التوبة نوعـــان : واجبة ومستحبـــة

فالواجبة هى التوبة مِن ترْك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلَّفين ، كما أمرهم الله بذلك فى كتابه وعلى السنة رسله .

والمستحبة هى التوبة مِن ترْك المستحبات وفِعْل المكروهات . فمن اقتصر على

٨- حديث حسن . رواه ابن ماجة (٤٢٥١) والترمذى (٢٤٩٩) واستغربه ، والحاكم (٢٤٤/٤) وصححه ، وتعقبه الذهبى .

٩- حديث حسن . رواه ابن ماجة (٤٢٤٤) والترمذى (٣٣٣٤) وقال : « حسن صحيح » ، وابن حبان (١٧٧١) وغيرهم .

١٠- حديث صحيح . رواه الترمذى (٣٢٨٤) وقال « حسن صحيح غريب »

١١- حديث صحيح . رواه أحمد (٤٧٢٦) وأبو داود (١٥١٦) والترمذى (٣٤٣٤) وقال « حسن صحيح غريب » . واللفظ لأحمد عدا قوله : « الواحد » فوضعتها بين حاصرتين .

التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقرَّبين . ومن لم يأت بالأولى كان من الظالمين : إما الكافرين وإما الفاسقين .

قال الله تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثةً * فأصحاب الميمنةِ ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشئمة ماأصحابُ المشئمةِ * والسَّابقون السَّابقون * أولئك المقرَّبون * فى جنَّاتِ النَّعيم ﴾ [الواقعة ٧-١٢] .

وقال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقرَّبين * فروح وريحان وجنةُ نعيمٍ * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذّبين الضالين * فنزل من حميم وتصليةُ جحيم ﴾ [الواقعة ٨٨ - ٩٤] .

وقال تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ [فاطر ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً * إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً * إن الأبرار يشربون من كأسٍ كان مزاجُها كافوراً * عيناً يشرب بها عبادُ الله يفجِّرونها تفجيراً ﴾ [الإنسان ٣ - ٦] .

وقال : ﴿ كلاَّ إن كتابَ الفجَّار لفى سجِّين ﴾ إلى قوله : ﴿ كلاَّ إن كتاب الأبرار لفى علِّيين * وما أدراك ما علِّيّون ﴾ إلى قوله : ﴿ ومزاجُهُ من تسنيم * عيناً يشرب بها المقرَّبون ﴾ [المطففين ٧ - ٢٨] .

قال ابن عباس : تمزج لأصحاب اليمين مزجاً ، ويشرب بها المقرَّبون صِرفاً. والتوبة رجوع عما تاب منه إلى ما تاب إليه ، فالتوبة المشروعة هى الرجوع إلى الله ، وإلى فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه[١] .

---

(١) التوبة فى اللغة هى الرجوع من الذنب ، يقال : تاب يتوب توبةً وتوباً ومتاباً ، والمتاب التوبة ، وتاب الله عليه أى عاد عليه بالمغفرة .

قال النووى رحمه الله ، فى شرح « صحيح مسلم » (٥٨٧/٥) :

« أصل التوبة فى اللغة : الرجوع ، يقال : تاب ، وثاب بالمثلثة ، وآب ، بمعنى رجع ، والمراد بالتوبة هنا : الرجوع عن الذنب ، وقد سبق فى كتاب « الإيمان » أن لها ثلاثة أركان :

- الإقلاع . - والندم على فعل تلك المعصية . - والعزم على ألا يعود إليها أبداً . =

* التوبة من ترك الحسنات أهم من التوبة من فعل السيئات :

وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة إلا عما يفعل العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهى عنها ، فأكثر الخلق يتركون كثيراً مما أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالها وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون إما ضالين بعدم العلم النافع ، وإما مغضوباً عليهم بمعاندة الحق مع معرفته .

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه فى كل صلاة بقوله :﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾[الفاتحة ٦ - ٧] ولهذا نزّه الله نبيه عن هذين ، فقال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى * ما ضلَّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وَحْيٌ يُوحىَ ﴾[النجم ١- ٤] .

فالضال الذى لا يعلم الحق ، بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به ، كما عليه النصارى .

قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قومٍ قد ضلّوا من قبلُ وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل ﴾ [المائدة ٧٧] .

والغاوى الذى يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق ، كما عليه اليهود . قال تعالى : ﴿ سأصرفُ عن آياتيَ الذين يتكبّرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كُلَّ آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغىِّ يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذّبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ [الأعراف ١٤٦] .

= فإن كانت المعصية لحق آدمى فلها ركن رابع وهو :

– التحلل من صاحب الحق .

وأصلها الندم وهو ركنها الأعظم ، واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصى واجبة ، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها ، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة .

والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع ، وعند المعتزلة بالعقل . ولا يجب على الله قبولها إذا وجدت بشروطها عقلا عند أهل السنة ، لكنه سبحانه وتعالى يقبلها كرماً وفضلاً ، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع ، خلافاً لهم . ١ . هـ .

وقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرضِ واتَّبَعَ هواه فمثلُهُ كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ [الأعراف ١٧٥-١٧٦] .

* الغى والضلال يجمعان جميع السيئات :

وفى الحديث عن النبى ﷺ : « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغىّ فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن »[1] .

فإن الغى والضلال يجمع جميع سيئات بنى آدم ، فإ ن الإنسان كما قال تعالى : ﴿ وحملها الإنسانُ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب ٧٢] .

فبظلمه يكون غاوياً ، وبجهله يكون ضالاً ، وكثيراً مايجمع بين الأمرين فيكون ضالاً فى شىء غاوياً فى شىء آخر ، إذ هو ظلوم جهول ، ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر كما قال : ﴿ فى قلوبهم مرَض فزادهم الله مرضاً ﴾ [البقرة ١٠] .

وكما قال :﴿ فلما زاغوا أزاغ اللّه قلوبهم ﴾ [الصف ٥] .

كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى ، فإذا عمل بعلمه ورّثه الله علم مالم يعلم ، وإذا عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى . قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[محمد ١٧] ، وقال تعالى :﴿ ويَزيدُ اللّه الذين اهتدوا هدى ﴾ [مريم٧٦] ، وقال :﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا ﴾ [العنكبوت ٦٩] .

وقال : ﴿ ولو أنهم فعلوا مايُوعظون به لكان خيراً لهم وأشدَّ تثبيتاً * وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾ [النساء ٦٦-٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم * لئلاَّ يعلمَ أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يُؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم ﴾ [الحديد ٢٨ - ٢٩] .

وهو ﷺ ذكر شهوات الغى فى البطون والفروج ، كما فى الصحيح أنه قال :

---

(١) حديث صحيح . رواه أحمد (٤٢٠/٤) وقال الهيثمى فى « المجمع » (٣٠٥/٧-٣٠٦) « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » . ووقع فى الأصل المطبوع « إ ن خوف ما أخاف .. » وهو خطأ طابع .

« من تكفّل لى ما بين لحييه وما بين رجليه تكفلت له بالجنة »[1]

فإن هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب ، لكن يفعلونه اتباعاً لشهواتهم .

وأما مضلاّت الفتن ، فأن يُفتَنَ العبدُ فيضلّ عن سبيل الله وهو يحسب أنه مهتد كما قال : ﴿ ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نُقيِّضْ له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدُّونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [الزخرف ٣٦ - ٣٧] .

وقال : ﴿ أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله فرآه حسناً فإن اللّه يُضلُّ من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ [فاطر ٨] . وقال : ﴿ وكذلك زُيِّن لفرعون سوءُ عمله وصُدَّ عن السبيل وما كيدُ فرعون إلا فى تباب ﴾ [غافر ٣٧] . وقال ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضلَّ سعيُهُم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً ﴾ [الكهف ١٠٣ - ١٠٤] .

ولهذا تأوّل أصحاب النبى ﷺ هذه الآية فيمن يتعبد بغير شريعة اللّه التى بعث بها رسوله ، من المشركين وأهل الكتاب كالرهبان ، وفى أهل الأهواء من هذه الأمة كالخوارج الذين أمر النبى ﷺ بقتالهم ، وقال فيهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، أينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة »[2] .

وذلك لأن هؤلاء خرجوا عن سنة رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين حتى كفّروا من خالفهم مثل "عثمان وعلى" وسائر من تولاهما من المؤمنين ، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم . كما قال النبى ﷺ فيهم : « يقتلون أهل الإسلام ، ويَدَعُون أهل الأوثان »[3] .

---

(١) رواه البخارى (١٢٥/٨) والترمذى (٢٤٠٨) وقال « حسن صحيح غريب » وسياق الترمذى أقرب لسياق المصنف رحمهما الله .

(٢) رواه البخارى (٢٤٣/٤ - ٢٤٤) و (٢١/٩) عن " أبى سعيد الخدرى " وعن على ، ومسلم (١٠٦٤) و (١٠٦٦) عن "أبى سعيد "وعن "على" ، وقد أدخل المصنف شيخ الإسلام رحمه الله حديثيهما فى حديث واحد وليس عندهم « وقراءته مع قراءتهم » وعند مسلم (٧٤٨/٢) من حديث على مرفوعاً : « ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشئ » .

(٣) رواه البخارى (١٦٦/٤-١٦٧) معلّقاً ووصله فى تفسير براءة (٨٤/٦) ومسلم (١٠٦٤) .

وإذا اجتمع شهوات الغيّ ومضلات الفتن قوى البلاء ، وصار صاحبه مغضوباً عليه ضالاً . وهذا يكون كثيراً ، بسبب حب الرئاسة ، والعلوّ فى الأرض ، كحال فرعون .

قال تعالى : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفةً منهم يذبّح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ [القصص ٤] فوصفه بالعلو فى الأرض والفساد . وقال فى آخر السورة : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يُريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبةُ للمتقين ﴾ [القصص ٨٣] .

ولهذا قال فى حق فرعون : ﴿ وكذلك زُيِّنَ لفرعون سوءُ عمله ﴾ [غافر ٣٧] .

وذلك أن حب الرئاسة شهوة خفية ، كما قال شداد بن أوس رضى الله عنه : « يا نعايا العرب ! يانعايا العرب ! إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية »(1)

قيل لأبى داود السجستانى : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة . وحبُّك الشىءَ يُعمى ويُصِمُّ ، فيبقى حب ذلك يُزيِّن له مايهواه ، مما فيه علو نفسه ، ويبغِّض إليه ضد ذلك ، حتى يجتمع فيه الاستكبار ، والاختيال ، والحسد الذى فيه بغض نعمة الله على عباده ، لا سيما من مُناظره .

والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين ، وهما أعظم الذنوب التى بها عُصِىَ الله أولاً . فإن إبليس استكبر وحسد آدم ، وكذلك ابن آدم الذى قتل أخاه حسد أخاه ، ولهذا كان الكبر ينافى الإسلام ، كما أن الشرك ينافى الإسلام ، فإن الإسلام هو الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك به ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، كحال فرعون وملئِه .

ولذلك قال لهم موسى : ﴿ وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين ﴾ [الدخان ١٩] وقال تعالى عن فرعون : ﴿ واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنُّوا أنهم إلينا لا يُرجعون ﴾ [القصص ٣٩] .

---

(١) وقع فى الأصل المطبوع « يابغايا العرب » من بغى وهو خطأ واضح ، صوابه ما أثبته وهو من نَعى . قال الزمخشرى : فى نعايا ثلاثة أوجه : أحدها : أن يكون جمع نَعِىٍّ ، وهو المصدر كصفىٍّ وصفايا ، والثانى : أن يكون اسم جمع ، كما جاء فى أخِيَّةٍ أخايا ، والثالث : أن يكون جمع نعاء التى هى اسم الفعل ، والمعنى يانعايا العرب جئن فهذا وقتكنّ وزمانكنّ ، يريد أن العرب قد هلكت . وانظر «اللسان » . مادة : " نعا " .

وقال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفُسُهُمْ ظُلماً وعلُوّاً فانظر كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾ [النمل ١٤] .

ومن أسلم وجهه لله حنيفاً فهو المسلم الذى على ملة إبراهيم الذى قال لــه ربه : ﴿ أسْلِمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمين ﴾ [البقرة ١٣١] .

وهذا الإسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم ، كما وصف الله به فى كتابه "نوحاً وإبراهيم وموسى ويوسف وسليمان "وغيرهم من النبيين مثل قول موسى لقومه :﴿ إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[يونس ٨٤] .

وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونورٌ يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ [المائدة ٤٤] .

وقال نوح عليه السلام :﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجْر إن أجْرِىَ إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[يونس ٧٢] .

وقال يوسف : ﴿ توفّنى مسلماً والحقنى بالصالحين ﴾ [يوسف ١٠١] .

وقالت بلقيس : ﴿ وأسلمتُ مع سليمانَ لله رب العالمين ﴾ [النمل ٤٤] .

* الغىّ فى شهوات الرئاسة والكبر والعلو :

وليس الغىّ مختصاً بشهوات البطون والفروج فقط ، بل هو فى شهوات البطون والفروج وشهوات الرئاسة والكبر والعُلوّ وغير ذلك ، فهو اتّباع الهوى وإن لم يعتقد أنه هوى ، بخلاف الضالّ ، فإنه يحسب أنه يحسن صُنعاً ، ولهذا كان إبليس أول الغاوين ، كما قال : ﴿ فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ [الأعراف ١٦-١٧] وقال : ﴿ ربِّ بما أغويتنى لأزيّنَنّ لهم فى الأرض ولأغوينّهم أجمعين * إلا عبادك منهم الْمُخْلَصين ﴾[الحجر ٣٩ -٤٠] .

وقال تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائىَ الذين كنتم تزعمون * قال الذين حقّ عليهم القولُ ربّنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون ﴾[القصص ٦٢ - ٦٣] .

وقد قال تعالى : ﴿ فكُبْكِبُوا فيها هــم والغاوون * وجنــودُ إبليس أجمعون ﴾ [الشعراء ٩٤-٩٥] .

وإنما فى الحديث ما يخاف على هذه الأمة من الغىّ ، وهو شهوات الغىّ فى

البطون والفروج فأما الغيّ الذى هو الاستكبار عن اتباع الحق فذاك أصل الكفر ، فصاحبه ليس من هذه الأمة ، كإبليس وفرعون وغيرهما .[1]

وأما غيّ شهوات البطون والفروج فذاك يكون لأهل الإيمان ثم يتوبون ، كما قال: ﴿ وعصى آدمُ ربَّه فغوى * ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى ﴾ [طه ١٢١- ١٢٢] .

وفي السنن والمسند من حديث ليث بن سعد ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو ، عن أبي سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن إبليس قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك لا أبرح أُغْوِى بنى آدم مادامت أرواحهم فيهم . فقال له ربه عز وجل : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى »[2] .

---

(١) فى الأصل : غيرها .

(٢) حديث صحيح : رواه أحمد (٣/٢٩) وقال الهيثمى فى « المجمع » (١٠/٢٠٧) : رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه .. والطبرانى فى « الأوسط » وأحد إسنادى أحمد رجاله رجال الصحيح وكذلك أحد إسنادى أبى يعلى.» واللفظ لأحمد .

(فصل)

* العصيان يقع من ضعف العلم :

وجميع ما يتوب العبد منه ، سواء كان فعلاً أو تركاً ، قد لا يكون كان عالماً بأنه ينبغي التوبة منه ، وقد يكون كان عالماً بذلك . فإن الإنسان كثيراً ما يكون غير عالم بوجوب الشيء أو قبحه ، ثم يتبين له فيما بعد وجوبُه أو قبحه . وقد يكون عالماً بوجوبه أو قبحه، ويتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب ، أو قوة المقتضى لفعل القبيح . لكن هذا لا يكاد يقع إلا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه ، وإلا فإذا كمل العلم استلزم الإرادة الجازمة في الطرفين ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ إنما التوبةُ على الله للذين يعملون السوءَ بجهالة ثم يتوبون من قريب فاولئك يتُوبُ الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ﴾ [النساء ١٧] .

قال أبو العالية : قال أصحاب محمد ﷺ : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .(١)

وقال تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربُكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم ﴾ [الانعام ٥٤] .

والمؤمن لا يزال يخرج من الظلمات إلى النور ، ويزداد هدى ، فيتجدد له من العلم والإيمان مالم يكن قبل ذلك ، فيتوب مما تركه وفعله . والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب ، كما قال النبي ﷺ : « إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صُقل قلبُه، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي قال الله : ﴿ كلاَّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين ١٤] .(٢)

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « إنه ليُغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »(٣) .

---

(١) رواه ابن جرير (٨٨٣٢) من أبي العالية بنحوه غير قوله : وكل من تاب ...
(٢) حديث حسن ورواه الترمذي (٣٣٣٤) وغيره وتقدم .
(٣) رواه مسلم ، وتقدم .

* التوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات :

والتوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات ، فإن من ترك واجباً أو فعل قبيحاً يعتقد وجوبه وقبحه ، كان ذلك الاعتقاد داعياً له إلى فعل الواجب ومانعاً من فعل القبيح ، فلا يكون فى فعله وتركه ثابت الدواعى والصوارف ، بل تكون دواعيه وصوارفه متعارضة . ولهذا يكون الغالب على هذا التلوّم ، وتكون أنفسهم لوامة ، تارة يؤدون الواجب وتارة يتركونه ، وتارة يتركون القبيح ، وتارة يفعلونه ، كما تجده فى كثير من فسّاق القبلة الذين يؤدون الحقوق تارة ويمنعونها أخرى ، ويفعلون السيئات تارة ويتركونها أخرى ، لتعارض الإرادات فى قلوبهم ، إذمعهم أصل الإيمان الذى يأمر بفعل الواجب وينهى عن فعل القبيح ، ومعهم من الشبهات والشهوات مايدعوهم إلى خلاف ذلك .

وأما مافعله الإنسان مع اعتقاد وجوبه ، وتَرَكَهُ مع اعتقاد تحريمه ، فهذا يكون ثابت الدواعى والصوارف، أعظم من الأول بكثير . وهذا تحتاج توبته إلى إصلاح اعتقاده أولاً وبيان الحق . وهذا قد يكون أصعب من الأول ، إذ ليس معه داع إلى أن يترك اعتقاده كما كان مع الأول داعٍ إلى أن يترك مراده .

وقد يكون أسهل إذا كان له غرض فيما يخالف موجب الاعتقاد ، مثل الآصار والأغلال التى على أهل الكتاب ، وإذلال المسلمين لهم ، وأخذ الجزية منهم ، مع مخالفة المسلمين له ، فهذا قد يكون داعياً إلى أن ينظر فى اعتقاده : هل هو حق أو باطل حتى يتبين له الحق ، وقد يكون أيضاً مرغباً له فى اعتقادٍ يخرج به من هذا البلاء وكذلك قهر المسلمين لعدوهم بالأسر يدعوهم إلى النظر فى محاسن الإسلام .

* الاعتقاد والإرادة يتعاونان :

فللرغبة والرهبة تأثير عظيم فى معاونة الاعتقاد ، كما للاعتقاد تأثير عظيم فى الفعل والترك . فكل واحد من العلم والعمل ، من الاعتقاد والإرادة يتعاونان .

فالعلم والاعتقاد يدعو إلى العمل بموجبه ، والإرادة رغبة ورهبة ، والعمل بموجبها يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل ، كما يقال : من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم .

وفى القرآن شواهد هذا متعددة فى مثل قوله : ﴿ ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيراًلهم وأشدَّ تثبيتاً * وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً

مستقيماً ﴾ [النساء ٦٦-٦٨] .

وفى قوله : ﴿ اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ [الحديد ٢٨] وغير ذلك .

فإذا كان الإنسان معاقَباً على الاعتقاد كما يعاقب الكفار على كفرهم ، كانت التوبة منه ظاهرة ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن اللّهَ ثالثُ ثلاثةٍ ومامن إلهٍ إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ [المائدة ٧٣-٧٤] وقال تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحُرُم فاقتلوا المشركين حيث وجدتُّموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوُا الزكاة فخلّوا سبيلهم ﴾ [التوبة ٥] . فأما الاعتقاد المغفور : كالخطأ والنسيان الذى لا يؤاخذ الله به هذه الأمة ، كما فى قوله : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ [البقرة ٢٨٦] .

وقد ثبت فى « الصحيح » أن الله قد فعل ذلك(١) .

وكما قال النبى ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »(٢) فهذا قد يقال فى مثله : إن قيل إنه يتاب منه فكيف يتاب مما لا ذم فيه ولا عقاب ؟ وإن قيل : لا يتاب منه فكيف لا يرجع الإنسان إلى الحق إذا تبين له ؟ .

وجواب ذلك أنه يتاب منه كما يتاب من غيره ، لأن صاحبه قد ترك ما هو مأمور به فى نفس الأمر من العلم وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ، إما لعجزه عن بلوغه وإما لتقصيره فى طلبه . وأيضاً ، فإنه قد فعل من الاعتقاد وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ماهو منهى عنه فى نفس الأمر ، لكن سقط عنه النهى لعدم قدرته على معرفة قبحه .

والتكليف مشروط بالتمكن من العلم والقدرة ، فلا يُكلَّف العاجز عن العلم ماهو عاجز عنه ، والناسى والمخطىء كذلك ، لكن إذا تجددت له قدرةعلى العلم صار مأموراً

---

(١) رواه مسلم (١٢٦) .

(٢) رواه البخارى (١٣٢/٩ - ١٣٣) ومسلم (١٧١٦) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ، فله أجران . وإذا حكم فاجتهد ، ثم أخطأ ، فله أجر » .

بطلبه ، وإذا تجدد له العلم صار مأموراً حينئذ باتباعه . وصار فى هذه الحال مذموماً على ترك ما يقدر عليه من طلب العلم الواجب ، وعلى ترك اتِّباع ما تبين له من العلم . وأيضاً فما دام غير مستيقن للحق فهو مأمور بطلب العلم الذى يبين له الحق ، والمعتقد المخطىء لا يكون مستيقناً قط ، فإن العلم واليقين يجده الإنسان من نفسه كما يجد سائر إدراكاته وحركاته ، مثلما يجد سمعه وبصره وشمه وذوقه ، فهو إذا رأى الشىء يقيناً يعلم أنه رآه ، وإذا علمه يقيناً يعلم أنه علمه . وأما إذا لم يكن مستيقناً فإنه لا يجد ما يجده العالم ، كما إذا لم يستيقن رؤيته لم يجد مايجده الرائى ، وإنما يكون عنده ظن ونوع إرادة توجب اعتقاده .

هذا هو الذى يجده بنو آدم فى نفوسهم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إن يتَّبعون إلا الظنَّ وما تهوى الانفُسُ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ [النجم ٢٣] .

وإذا كان الإنسان مأموراً بطلب العلم الذى يحتاج إليه بحسب إمكانه ، وهو إذا لم يجد العلم اليقين [و] يعلم أنه لم يجد العلم فهو مأمور بالطلب والاجتهاد ، فإن ترك ما أُمِرَ به كان مستحقاً للذم والعقاب على ذلك .

فإذا تبيَّن له الحق وعلمه ، وعلم أنه كان جاهلاً به معتقداً غير الحق كان تائباً ، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق ، وإن كان الله قد عفا عنه ما رجع عنه لعجزه إذ ذاك ، وكان أيضاً تائباً مما حصل فيه أولاً من تفريط فى طلب الحق ، فكثير من خطأ بنى آدم من تفريطهم فى طلب الحق لا من العجز التام . وكان أيضاً تائباً من اتباع هواه أولاً بغير هدى من الله ، فإن أكثر ما يحمل الإنسان على اتباع الظن المخطىء هو هواه كما قال تعالى : ﴿ إن يتَّبعون إلا الظَّنَّ وما تهوى الأنفس ﴾ [النجم ٢٣] وليس توبة هذا وحاله كحال من كان عاجزاً عن الفعل ثم قدر عليه كالمريض الذى لا يطيق القيام إذا قدر عليه بعد ذلك ، وكالخائف إذا أَمِن ، وكالمصلِّى بتيمم ، ونحو هؤلاء . وذلك أن هؤلاء إذا كانت إرادتهم للفعل المأمور به على وجهة الكمال ثابتةً فى قلوبهم ، وقد عملوا مايقدرون عليه من المراد ، وإنما تركوا تمامه لعجزهم - كان لهم مثل ثواب الفاعل ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه عن أبى موسى : « إذا مرض العبد أو سافر كُتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »[1] .

---

(١) رواه البخارى (٧٠/٤) ولفظه : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ماكان يعمل مقيماً صحيحاً » والحديث من أفراد البخارى ولم يتفقا عليه .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « إن بالمدينة لرجالاً ماسرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم . حبسهم العذر »[1] .

وقد قال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضَّرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ﴾[النساء ٩٥] فهؤلاء لهم علم بالمأمور به الكامل ، واعتقاد الأمر به ، وإرادة فعله بحسب الإمكان ، وهذا كله من أدائهم للمأمور به ، فإذا تجددت لهم قدرة لم يتجدد رغبة فى الفعل الكامل ، وإنما يتجدد العمل بتلك الرغبة المتقدمة ، وإن كان لا بد لهذا الفعل من إرادة تخصه ، ولم يكن هؤلاء مأمورين بذلك إلا فى هذه الحال فقط ، كما تؤمر المرأة بالصلاة عند انقضاء الحيض ، وكما يؤمر الصبى بما يجب عليه عند بلوغه ، وكما يؤمر المزكِّى بالزكاة بعد ملك النصاب والحول ، والمصلِّى بالصَّلاة بعد دخول الوقت .

وأما الناسى والمخطىء فإنه لم يكن قد أتى بالعلم والاعتقاد والإرادة ، فلا يثاب على هذه الأمور التى لم تكن له ، بل يكون الذى حصل له ذلك أفضل منه بها كما قال تعالى : ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[الزمر ٩] فنفى المساواة بين الذى يعلم والذى لا يعلم مطلقاً ، لم يستثن المعذور كما استثنى فى تفضيل المجاهد على القاعد المعذور وكذلك سائر ما فى القرآن من نحو هذا كقوله : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظُّلمات ولا النور * ولا الظِّلُّ ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات ﴾ [فاطر ١٩-٢٢] وقوله :﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً ﴾[هود ٢٤] وقوله :﴿ أوَمَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾[الأنعام ١٢٢] .

ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[2] . لم يجعل أجر العاجز على إصابة الصواب مع اجتهاده كأجر القادر عليه ، كما جعل للمريض والمسافر مثل ثواب الصحيح المقيم ، كما جعل المعذور من القاعدين عن الجهاد الذى تمت رغبته بمنزلة المجاهد فإن الأصل هو القلب ، والبدن تابع . فالمستويان فى عمل القلب إذا فعل كل منهما بقدر بدنه

(١) رواه البخارى عن أنس (٤/ ٣١) ، ومسلم (١٩١١) عن جابر .

(٢) متفق عليه ، وتقدم .

متماثلان ، بخلاف المتفاضلَيْن فى عمل القلب : علمه وإرادته وما يتبع ذلك ، فإنهما لا يتماثلان . ولهذا يُعاقب العبد على ماتركه من الإيمان بقلبه . وإن قيل : إن ذلك تكليف ما لا يُطاق ، ولا يعاقب على ماعجز عنه بدنه باتفاق المسلمين ، فهو يعاقب على ترك ما أُمرَ بإرادته وفعله وإن كانت نفسه لا تريده ولا تحبه وليس هو معاقباً على ترك ماعجز عنه بدنه ، كجهاد المقعد والأعمى ونحوهما .

ونفسه إنما لا تعلم الحق الذى بعث الله به رسله ولا تريده لتفريطه وتعديه إذ آيات ذلك الحق ظاهرة ، وهو محبوب ، وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التى تتضمن القوة على معرفة هذا الحق وعلى محبته ، ولكن غيَّر فطرته بما يقلده عن غيره ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أويمجِّسانه ، كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء »(1)

وإذا كان قد خُلق على الصحة والسلامة ، فهو يستحق العقوبة على ماغيَّره من خلق الله بتفريطه وعدوانه ، لاتِّباعه الظنَّ وماتهوى الأنفس .

وقد بعث الله الرسل مبشِّرين ومنذرين ، وقال سبحانه : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [الإسراء ١٥] وهذا مما يظهر به الفرق بين المجتهد المخطىء والناسى من هذه الأمة فى المسائل الخبرية والعملية ، وبين المخطىء من الكفار والمشركين وأهل الكتاب الذى بلغته الرسالة، إذا قيل إنه غير معاند للحق ، فإن ذلك لا يكون خطؤه إلا لتفريطه وعدوانه ، لا يُتصور أن يجتهد فيكون مخطئا فى الإيمان بالرسول ، بل متى اجتهد - والاجتهاد استفراغ الوُسع فى طلب العلم بذلك - كان مصيباً للعلم به بلا ريب .

فإن دلائل ماجاء به الرسول ودواعيه فى نهاية الكمال والتمام الذى يشمل كل من بلغته ، ولا يترك أحد قط اتِّباع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب بخلاف كثير من تفصيل ما جاء به ، فإنه قد يعزب علمه عن كثير من خواصِّ الأمة وعوامِّها ، بحيث لا يكونون فى ترك معرفته لا مقصِّرين ولا مفرِّطين فلا يعاقبون بتركه ، مع أنهم قد آمنوا به إيماناً مجملاً فى إيمانهم بما جاء به الرسل ، فهم آمنوا به مجملاً

---

(1) رواه البخارى (١١٨/٢) ومسلم (٢٦٥٨) وصدر الحديث عندهما بلفظ : « مامن مولود إلايولد على الفطرة .... » الحديث .

ومعهم أصول الإيمان به ، كما أن الفاسق معه الدواعي لفعل المأمور وترك المحظور .

فلهذا كان المخطىء بالتأويل من هذه الأمة ، والفاسق بالفعل مع صحة الاعتقاد ، كل منهما محسناً من وجه ، ومسيئاً من وجه ، وليس واحد منهما كالكفار من المشركين وأهل الكتاب ، وإن كانوا فى ذلك على درجات متفاوتة ، بل كل منهما ليس تاركاً لما أُمِرَ به من الاعتقاد والعمل مطلقاً ولا فاعلاً لضده مطلقاً، بل المتأول قد آمن إيماناً عاماً بكل ماجاء به الرسول ، واستسلم لكل مايأمره به . وهذا الإيمان والإسلام يتناول ماجهله ، ويدعوه إلى الإيمان والإسلام المفصَّل إذا علمه ، لكن عارض ذلك مِنْ جهله وظلمه لنفسه ما قد يكون مغفوراً له وقد يكون معذَّباً به .

ولذلك الفاجر بالعمل معه من الإيمان بقبح وبغض ماهو [داع له إلى] فعل الأصل المأمور به وداعٍ إلى تركه ، لكن عارض ذلك من هواه ما منع كمال طاعته ، بخلاف المكذِّب للرسول ﷺ والكافر به ، فإنه لم يصدِّق بالحق ولم يستسلم له لا جملة ولا تفصيلاً، لكن قد يكون ماتبعه من ظنه وهواه موجباً لبعض ما جاء به الرسول ومانعاً له من النظر فيه بحيث لا يستطيع مع ذلك أن يسمع به ، فهذا واقع كما قال سبحانه : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذٍ للكافرين عرضاً * الذين كانت أعينهم فى غطاءٍ عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ [الكهف ١٠٠-١٠١] .

وقال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يُعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاءالذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين * الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون * أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يُضاعف لهم العذاب ماكانوا يستطيعون السمع وماكانوا يُبصرون ﴾ [هود ١٨-٢٠] .

لكن عدم هذه الاستطاعة كان بتفريطه وعدوانه ، ومن كان تركه للمأمور بذنب منه أو ضرورته إلى المحظور بذنب منه - لم يكن ذلك مانعاً من ذمِّه وعقابه ، ومن هـــذا قوله سبحانه : ﴿ ونُقلِّبُ أفئدتهـم وأبصارهـم كمـا لـم يؤمنوا بـه أول مرة ﴾ [الأنعام ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾ [البقرة ٨٨] وقال :﴿ وقَوْلِهِم قلوبُنا غُلْفٌ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ [النساء ١٥٥] .

وبهذا يظهر ضعف قول طائفة من المتكلمين الذين يقولون : الخطأ والإثم يتلازمان، ثم منهم من يقول : كل مجتهد فى المسائل العملية مصيب ، كما يقوله كثير من المعتزلة والأشعرية .ومنهم من يقول : بل فيهم[1] مخطىء ، والمخطىء آثم ، كما يقوله المريسى وغيره ، وذلك أنهم اعتقدوا أنه حيث يكون مخطئاً يكون تاركاً لما وجب عليه .

ثم قال الأولون : فإذا لم يكن تاركاً للمأمور به ، فلا يكون لله فى المسألة حكم معيَّن ، أو لا يكون الحكم المنصوص حكماً فى حقه إذا لم يتمكن من معرفته . وقال الآخرون : بل إذا كان مخطئاً يكون تاركاً للمأمور به فيكون آثماً . والتحقيق أنه مأمور به أمراً مطلقاً، لكن شرط الإثم بمنزلة التمكن من معرفته فإذا لم يتمكن من معرفته لا يكون شرط الإثم موجوداً فيه . ولكن ذلك لا ينفى أن يكون هو المأمور به ، وهو الذى يحبُّه الله ويرضاه ، ويُثيب فاعله إذا فعله . وإنما سقط عن بعض العباد لفوات الشرط فى حقه خاصة ، وحينئذ فيكون النزاع فى بعض المواضع نزاعاً لفظياً .

ولهذا اختلف العلماء : هل هو مصيب فى اجتهاده وإن كان مخطئاً فى نفس الأمر ؟ أو هو مخطىء فى اجتهاده وفى نفس الأمر ؟ على قولين ذكرهما القاضى روايتين عن أحمد . وذلك أن الخطأ فى الاجتهاد قد يعنى به القصور والتقصير .

وقد لا يعنى به إلا التقصير ، إذ العاجز عن معرفة الحكم الذى لله عاجز قاصر ، ليس بمقصِّر ولا مُفرِّط فيما يَعُدُّ عليه .

فإذا قال : أخطأ فى اجتهاده ، أراد أخطأ فى استدلاله ، بمعنى أنه لم يستدل بالدليل الذى يوصله إلى نفس الحق . ولا ريب أنه أخطأ هذا الاستدلال الموصل له إلى الحق ، إذ لو أصابه لأصاب الحق ، لكنه لم يكن قادراً على هذا الاستدلال فلا يعاقب على تركه.

ومن قال : لم يخطىء فى اجتهاده ، أراد أنه لم يخطىء فيما قدر عليه من الاجتهاد ، بل فعله على وجهه ، لكن لم يكن مقدوره من الاجتهاد كافياً فى إدراك المطلوب فى نفس الأمر .

---

(١) فى الأصل المطبوع : « فيها » .

ومثل هذا النزاع أن يُقال : هل فعل ما أمر به أو لم يفعل ما أمر به ؟

فالمأمور به فى نفس الأمر لم يفعله ، وأما المأمور به فى حقه من العمل الممكن فقد فعله . ولذلك إذا اشتبهت أخته بأجنبية ، هل يقال : الحرام - فى نفس الأمر - واحدةً ، أم الاثنتان محرمتان ؟ على القولين بهذا الاعتبار .

(فصل)

* التوبة من الحسنات لا تجوز عند أحد من المسلمين :

فأما التوبة من الحسنات فلا تجوز عند أحد من المسلمين ، بل من تاب من الحسنات ، مع علمه بأنه تاب من الحسنات ، فهو إما كافر وإما فاسق . وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهل ضالّ - وذلك أن الحسنات هى الإيمان والعمل الصالح ، فالتوبة من الإيمان هى الرجوع عنه ، والرجوع عنه ردّةٌ ، وذلك كفر .

والتوبة من الأعمال الصالحة رجوع عما أمر الله به وذلك فسوق أو معصية .

والله تعالى حبَّب إلى المؤمنين الإيمان ، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، فكل حسنة يفعلها العبد إما واجبة وإما مستحبة . والتوبة تتضمن الندم على مامضى والعزم على أن لا يعود إلى مثله فى المستقبل[1] .

(١) قال الإمام ابن القيم ، رحمه الله ، فى « مدارج السالكين » (١٨٢/١) : « فحقيقة التوبة : هى الندم على ماسلف منه فى الماضى . والإقلاع عنه فى الحال والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل . والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة فإنه فى ذلك الوقت : يندم ، ويقلع ، ويعزم . فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خُلق لها وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة ، ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له . فأما الندم : « فإنه لاتتحقق التوبة إلا به » ، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه . وفى « المسند » الندم توبة »[1] وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب . وأما الاعتذار : ففيه إشكال ، فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار؛ فإن الاعتذار محاجة عن الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف .

(١) حديث صحيح : رواه أحمد (٣٥٦٨) وابن ماجه (٤٢٥٢) والحاكم (٢٤٣/٤) وصححه ووافقه الذهبى .

والندم يتضمن ثلاثة أشياء : اعتقاد قبح ماندم عليه ، وبغضه وكراهته ، وألم يلحقه عليه . فمن اعتقد قبح ماأمر الله به أمر إيجاب أو ا ستحباب ، أو أبغض ذلك وكرهه بحيث يتألم على فعله ، ويتأذى بوجوده ، ففيه من النفاق بحسب ذلك . وهو إما نفاق أكبر يخرجه من أصل الإيمان ، وإما نفاق أصغر يخرجه من كماله الواجب عليه . قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم اتَّبعوا ماأسخط اللهَ وكرهوا رضوانه فأحبط

وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه فى شىء :

وما قابلتُ عَتْبك باعتـــــذار ولكنى أقول كما تقـــــول

وأطرق باب عفوك بانكســـار ويحكم بيننا الخُلقُ الجميـــل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره ، وأزال عتبه عليه . فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار بأن يكون فى قلبه ولسانه : اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر ، اللهم لا عذر لى وإنما هو محض حقك ، ومحض جنايتى ، فإن عفوت وإلا فالحق لك . والذى يظهر لى من كلام « صاحب المنازل » أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك ، ولا جهلاً به ، ولا إنكاراً لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك . وإنما كان من غلبة الهوى ، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة وطمعاً فى مغفرتك ، واتكالاً على عفوك ، وحسن ظن بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعاً فى سعة حلمك ورحمتك . وغرنى بك الغَرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، وسترك المرخِىُّ علىَّ ، وأعاننى جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك . ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك. ونحو هذا من الكلام المتضمّن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية . فهذا من تمام التوبة : وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل والله يحب من عبده أن يتملق له ... [و] أيضاً يحب من عبده أن يعتذر إليه ويتنصل إليه من ذنبه .. فهذا هو الاعتذار المحمود .

وأما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة لله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار . وهذا فعل خصماء الله . كما قال بعض شيوخهم فى قوله تعالى : ﴿ زُيِّن للناس حبُّ الشهواتِ من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ﴾ [آل عمران ١٤] . قال : أتدرون ماالمراد بهذه الآية ؟ .

قالوا : ما المراد بها ؟ قال : إقامة أعذار الخليقة .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه . وإنما المراد بها : التزهيد فى هذا الفانى الذاهب والترغيب فى الباقى الدائم ، والإزراء بمن آثر هذا المزيَّن واتبعه ، بمنزلة الصبى الذى يزين له ما يلعب به فيهش

أعمالهم ﴾ [محمد ٢٨] وقال تعالى : ﴿ وإذا ماأنزلت سورةٌ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين فى

إليه ويتحرك له مع أنه لم يذكر فاعل التزيين فلم يقل « زيَّنا للنَّاس » والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصى إلى الشياطين كما قال تعالى : ﴿ وزيَّن لهم الشيطان ماكانوا يعملون ﴾ [الأنعام ٤٣] .

وقال : ﴿ وكذلك زيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ [الأنعام ١٣٧] وفى الحديث : « بُعِثْتُ هادياً وداعياً وليس إلىَّ من الهداية شىء ، وبعث إبليس مغوياً ومزيناً . وليس إليه من الضلالة شىء »(١) .

ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ [الأنعام ١٠٨] .

فإن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى مازينه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة : السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة . الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر منافٍ للتوبة . وليس هو من الاعتذار فى شىء .

وفى بعض الآثار « إن العبد إذا أذنب . فقال : يارب هذا قضاؤك وأنت قدَّرت علىَّ . وأنت حكمت علىَّ . وأنت كتبت علىَّ . يقول الله عز وجل : وأنت عملت ، وأنت كسبت . وأنت أردت واجتهدت . وأنا أعاقبك عليه .

وإذا قال : يارب أنا ظلمتُ ، وأنا أخطات ، وأنا اعتديتُ ، وأنا فعلتُ .

يقول الله عز وجل : وأنا قدَّرتُ عليك وقضيتُ وكتبتُ ، وأنا أغفر لك .

وإذا عمل حسنة . فقال: يارب أنا عملتُها . وأنا تصدقتُ . وأنا صلّيتُ . وأنا أطعمتُ .

يقول الله عز وجل : وأنا أعنتك . وأنا وفقتك ، وإذا قال : يارب أنت أعنتنى ووفقتنى . وأنت مننت علىَّ . يقول الله : وأنت عملتها ، وأنت أردتها . وأنت كسبتها » .

فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافى الاعتراف فذلك مناف للتوبة .

واعتذار يقرر الاعتراف . فذلك من تمام التوبة . » ا . هـ .

---

(١) حديث ضعيف جداً : رواه العقيلى فى « الضعفاء » وابن عدى فى « الكامل » - كما فى « الفتح الكبير - وقال المناوى فى « الفيض » (٣ / ٢٠٥) : قال مخرجه العقيلى : خالد - يعنى ابن عبد الرحمن بن الهيثمى - ليس بمعروف بالنقل وحديثه غير محفوظ ولا يعرف له أصل » .

قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ [التوبة ١٢٤ - ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ وننزّل من القرآن ماهو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خســـاراً ﴾ [الإسراء ٨٢] .

بل إذا علم العبد أن هذا الفعل قد أمره الله به وأحبه ، فاعتقد هو أن ذلك ليس مما أمر الله به وأبغضه وكرهه ، فهو كافر بلا ريب . فمثل هذه التوبة عن الحسنات هى ردةٌ محضة عن الإيمان وكفر بالإيمان ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حَبِطَ عملُه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [المائدة ٥] .

فإطلاق القول بأن الحسنات يُتاب منها هو كفر يجب أن يُستتاب صاحبه ، إذ معناه أنه يُؤمر بالرجوع عن الحسنات ، واعتقادُ أن الرجوع عن الحسنات يقرِّب إلى الله ، وهذا كفر بلا ريب . ثم إن هذه التوبة متناقضة ممتنعة فى نفسها ، فإن التائب من الحسنات إن اعتقد أن هذه التوبة حسنة ، فعليه أن يتوب منها ، فتكون باطلة ، فلا يكون قد تاب من الحسنات . وإن اعتقد أنها سيئة كـان مـقـراً بـأن هذه التوبة محرَّمة ، فقد التزم أحد أمرين :

إما أنه لم يتب من الحسنات ، أو تاب توبة محرَّمة . وهذا اشتبه عليه حال السابقين المقرّبين الذين يتوبون من ترك المستحبات ، أو فعل المكروهات غير المحرمات ، فظن أنهم تابوا مما فعلوه من الحسنات ، وتركوه من المحرمات ، فإنهم لو تابوا من ذلك لكانوا مرتدين ، [إما] عن أصل الإيمان وإما عن كماله .

وإنما هى توبة عما تركوه من مستحب وفعلوه من مكروه ، مثل أن يكون العبد يصلى صلاة مجزئة غير كاملة ، فتبلغه صلاة النبى ﷺ المستحبة ، فيصلى كصلاته ، ويندم على ماكان يفعله من الصلاة الناقصة .

فهو لا يتوب مما فعله من الحسن ، وإنما يتوب مما تركه من الحسن ، ولهذا ينسب نفسه إلى التفريط بما أضاعه من الحسنات ، وكذلك إذا سمع فضائل الأعمال المستحبة وماوعد الله لأصحابها من علو الدرجات ، فيندم على ما فرط من ذلك ، ويعزم على فعلها ، فهو توبة مما تركه من الحسنات .

وكذلك لو كان يصبر على المكاره ، مثل الفقر والمرض وخوف العدو ، من غير رضى بذلك ، فبلغه مقام أهل الرضا ، وأنه أعلى من الصبر الذى لا رضا معه ، وأن

هؤلاء يستحقون رضوان الله عليهم ، وأن أول من يُدعى إلى الجنة الحمّادون الذين يحمدون الله على السرّاء والضرّاء ، وما روى عن النبى ﷺ أنه قال لابن عباس : « إن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، وإن لم تستطع فإن فى الصبر على مايُكره خيراً كثيراً »[1]

فهذا يتوب من ترك الرضا لا من نفس ما أمر به من الصبر ، فإن الصبر يبقى مع الرضا ، لابد من الصبر فى الحالين ، لكن تذهب مرارة الكراهة بالرضا ، وتلك المرارة ليست من الحسنات المأمور بها ، ولا هى داخلة أيضاً فى حد الصبر المأمور به ، بل الصبر قد تكون معه مرارة ، وقد لا تكون .

ومن اعتقد أن الصبر لا يكون إلا مع مرارة ، وأنه ضد الرضا - فقد تكلم بعرف بعض المتأخرين ، وليس ذاك عرف الكتاب والسنة ، فإن الله تعالى أمرنا بالصبر وأثنى على أصحابه فى أكثر من تسعين موضعاً من كتابه .

والله تعالى لا يأمر بما هو مكروه أو ترك الأفضل ، ولا يكون ذلك إلا بفعل الحسن ، لا بترك الأحسن

* المعنى الصحيح لعبارة « حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين » :

وبهذا تعرف قول من قال : « حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين » مع أن هذا اللفظ ليس محفوظاً عمن قوله حجة ، لا عن النبى ﷺ ، ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتها . وإنما هو كلام وله معنى صحيح وقد يحمل على معنى فاسد .

أما معناه الصحيح فوجهان :

أحدهما : أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات وهذا الاقتصار سيئة فى طريق المقرَّبين . ومعنى كونه سيئة أن يَخرج صاحبهُ عن مقام المقرَّبين ، فَيُحرَم درجاتهم ، وذلك مما يسوء من يريد أن يكون من المقربين . فكل من أحب شيئاً وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك . فالمقربون يتوبون من الاقتصار على

---

(١) حديث حسن . رواه أحمد (١/٣٠٧-٣٠٨) واللفظ له .

والترمذى (٢٥١٦) وقال : حسن صحيح .

والحاكم (٣/٥٤١ - ٥٤٢) وقال : روى الحديث بأسانيد عن ابن عباس غير هذا .

وفى إسناد أحمد والترمذى : قيس بن الحجاج وهو صدوق ، كما فى « التقريب » .

الواجبات ، لا يتوبون من نفس الحسنات التى يعمل مثلها الأبرار ، بل يتوبون من الاقتصار عليها . وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن .

الثانى : أن العبد قد يُؤمر بفعل يكون حسناً منه ، إما واجباً ، وإما مستحباً ، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته . ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك ، بل يُؤمر بما هو أعلى منه ، فلو فعل هذا مافعله الأول كان ذلك سيئة .

مثال ذلك أن العامى يُؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه، وإن كان فى ذلك تقليد لهم ، إذ لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه . وأما العلماء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بهما فلو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامى لكانوا سيئين بذلك .

وهذا كما يُؤمر المريض أن يُصلّى قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فإن لم يستطع فعلى جنب . وكما يؤمر المسافر أن يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين فى السفر ، وهذا لو فعله المقيم لكان مسيئاً تاركاً للفرض ، بل فرضه أربع ركعات . فإن المرض والسفر لا ينقص العبد عن كونه مقرباً إذا كان ذلك حاله فى الإقامة ، فقد ثبت فى « الصحيحين » عن النبى ﷺ أنه قال : « إذا مرض العبد أو سافر كُتِبَ له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم »[1] بخلاف العلم والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال والمسابقة إلى الخيرات ، فإن الله يقول : ﴿ يرفعِ اللّهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات ﴾ [المجادلة ١١] .

ويقول : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غَيْرُ أولى الضَّرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فَضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكُلا وعد الله الحُسْنى ﴾ [النساء ٩٥] .

ويقول فى كتابه : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكُلاً وعد اللّه الحُسْنى ﴾ [الحديد ١] .

ويقول : ﴿ أجعلتم سقايةَ الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند

---

(١) رواه البخارى ، وتقدم ، ثم هو من أفراد البخارى ، فلم يروه مسلم .

الله وأولئك هم الفائزون * يبشّرهم ربهم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنّاتٍ لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴾ [التوبة ١٩-٢٢] .

وكذلك في « الصحيحين » عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تَسُبُّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً مابلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه »[1] .

وقال « خير القرون القرن الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »[2] فالعلم والجهاد كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يدخل في ذلك هو واجب على الكفاية من المؤمنين . فمن قام به كان أفضل ممن لم يقم به ، وإذا ترك ذلك من تعين عليه كان مذنباً مسيئاً ، فيكون ذلك سيئة له إذا تركه ، وحسنة مفضلة له على غيره إذا فعله . وإن كان القيام بالواجبات بدون ذلك من حسنات مَن لم يكن قادراً على ذلك . فحسنات هؤلاء الأبرار - وهي الاقتصار على ذلك - سيئات أولئك المقرّبين .

وكذلك السابقون الأولون من هذه الأمة فيما فعلوه من الجهاد والهجرة لو تركوا ذلك واقتصروا على مادونه كان ذلك من أعظم سيئاتهم . قال النبي ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا »[3] .

كان الاقتصار على مجرد ذلك من حسنات الأبرار الذين ليسوا من أولئك السابقين . وكذلك المرسلون لهم مأمورات لو تركوها كان ذلك سيئات ، وإن كان فعْل مادونها حسنات لغيرهم ممن لم يؤمربذلك ، إلى نظائر ذلك مما يؤمر فيه العبد بفعل لم يؤمر به من هو دونه ، فيكون ترك ذلك سيئة في حقه ، وهو من المقربين إذا فعله ، ويكون فعل مادون ذلك حسنات لمن دونه .

وذلك أن الإنسان يفضل على غيره إما بفعل مستحب في حقهما ، وإما بما يؤمر به أحدهما دون الآخر فيفعله ، وتخصيصه بفعله قد يكون لقدرته وقد يكون لامتحانه بسببه ، كمن له والدان فإنه يؤمر ببرِّهما ويكون بذلك أفضل ممن لم يعمل مثل عمله كما روى عن النبي ﷺ في حق المتصدِّقين بفضول أموالهم المشاركين

(١) رواه البخاري (١٠/٥) ومسلم (٢٥٤٠) .

(٢) رواه البخاري (٣/٥) ومسلم (٢٥٣٤) وصدر الحديث عنده « خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم .. » الحديث بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٢٨/٤) ومسلم (١٣٥٣)

لغيرهم فى الأعمال البدنية : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »[1]

فهؤلاء المفضّلون فى الاقتصار على مادون هذه الأمور سيئات فى حقهم وحسنات لمن ليس مثلهم فى ذلك .

فهذان الوجهان كلاهما معنى صحيح لقول القائل : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

* المعنى الفاسد لعبارة « حسنات الأبرار سيئات المقربين »:

وأما المعنى الفاسد فأن يظن الظانُّ أن الحسنات التى أمر الله بها أمراً عاماً يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين ، مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل على الله ، وإخلاص الدين لله ، ونحو ذلك هى سيئات فى حق المقربين . فهذا قول فاسد غلا فيه قوم من الزنادقة المنافقين المنتسبين إلى العلماء والعُبَّاد ، فزعموا أنهم يصلون إلى مقام المقربين الذى لا يؤمرون فيه بما يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات ، ولا يحرم عليهم ما يحرم على عموم المؤمنين من المحرَّمات ، كالزنا والخمر والميسر .

وكذلك زعم قوم فى أحوال القلوب التى يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات فى حقهم .

وكلا هذين [القولين] من أخبث الأقوال وأفسدها .

وإنما قلنا : إن التائب من الحسنات إن علم أنها حسنات - وتاب منها فقد أذنب إما بكفر أو فسوق أو معصية ، وإ ن لم يعلم أنها حسناتٌ فهو ضالٌ جاهل ، لأنه إذا تاب مما يسمى حسنة ، وكان حسنة فى الشريعة حقيقة قد أمر الله بها ، فهو راجع عن طاعة الله التى هى طاعته وهى حسنة . والرجوع عن طاعة الله ودينه لا يخرج عن أن يكون ردّةً عن أصل الدين فيكون كفراً مغلَّظاً ، وإما عن كماله . هذا لو كان الرجوع بنفس الترك ، فإن ترك الإيمان كفر ، وترك الواجبات إما فسق وإما معصية ، وترك المستحبَّات المتطوعة يؤخّر درجته . هذا إذا كان تركاً محضاً ، فأما إذا اعتقد مع ذلك أن الحسنات التى يحبها الله ورسوله

---

(١) رواه البخارى (٢١٣/١ - ٢١٤) ومسلم (٥٩٥) وتصدير شيخ الإسلام معنى الحديث بصيغة التمريض « روى » المشعرة بالتضعيف فيه نظر ، لثبوت الحديث فى « الصحيحين » فيجب مراعاة المصطلحات الحديثية عند التصنيف ، والله الموفق .

مما يتاب منها بحيث يندم العبد عليها ، فيعتقد أن تركها خير من فعلها ، أوأنها ليست مأموراً بها ، أو أنها لا تقرِّب إلى الله أولا تنفع عنده ، أو أبغضها وكرهها ورجع عنها وتألَّم من فعلها متديِّناً بذلك - فهذا كافر مرتد تجب استتابته بلا نزاع بين العلماء . وهذا هو مسمَّى التوبة . فعُلم أن القول بأن الحسنات يتاب منها كفر محض .

وأما إن لم يعلم أنها حسنات ، بل تاب مما كان يسمِّيه - أو غيره - حسنات ، أو كان حسنةً فى الشريعة ولم يعلم العبد أنه حسنة بل ظن أنه سيئة ، أو كان سيئة منهياً عنها ، واعتقد المرء أنه حسنة مأمور بها - فهو ضال جاهل ، وهذا عليه أن يتوب من هذا الاعتقاد والعمل الذى كان يعتقد أنه حسنة ، كما يتوب كل ضالّ من الكفار وأهلِ الأهواء المشركين وأهل الكتاب ، والمبتدعة كالخوارج والروافض والقدريه والجهمية وغيرهم . فإن هؤلاء يتوبون مما كانوا يظنونه حسناتٍ ، لا يتوبون مما هو فى الشريعة حسنات ، ولا يطلقون القول : إنا نتوب من الحسنات ، ولا أن التوبة من الحسنات مشروع للسابقين ، ولا أن الذى تبنا منه كان حسنات . ولكن يقولون : نتوب مما كنا نظن أنه حسنات وليس بحسنات » .

كما قيل :

إذا مَحاسِنِىَ اللاتى أُدِلُّ بها
كانتْ ذُنُوبِى فقلْ لى : كيف أعتذر[1] ؟

وكذلك يتوب المرء مما يعده حسنات له وهو مقصِّر فى فعله ، أو خائف من تقصيره فى فعله ، كما قال تعالى : ﴿ والذين يُؤْتُون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنَّهم إلى ربهم راجعون ﴾ [المؤمنون ٦٠] . وقد روى عن عائشة أنها قالت : يارسول الله أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : « لا يابنتَ الصدِّيق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألاَّ يُقْبَلْ منه »[2]

وهذا لأن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ [المائدة ٢٧] أى من الذين يتقونه فى العمل .

---

(١) ديوان البحترى (٢/٤٣) .
(٢) حديث حسن : رواه أحمد (٢/١٥٩ و٢٠٥) وابن ماجه (٤١٩٨) والترمذى (٣١٧٥) وقال : وقد روى هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد عن أبى حازم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحو هذا » .

والتقوى فى العمل بشيئين : أحدهما : إخلاصه لله ، وهو أن يريد به وجه الله لايشرك بعبادة ربه أحداً . والثانى : أن يكون مما أمره الله به وأحبه ، فيكون موافقاً للشريعة ، لا من الدين الذى شرعه مَنْ لم يأذن الله له ، وهذا كما قال الفضيل بن عياض فى قوله : ﴿ ليبلوكم أيُّكم أحسن عملاً ﴾ [الملك ٢].

قال : أخلصه وأصوبه . وذلك أن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنّة .

فالسعيد يخاف فى أعماله أن لا يكون صادقاً فى إخلاصه الدين لله ، أو أن لا تكون موافقة لما أمرالله به على لسان رسوله . ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم ، فذكر البخارى عن أبى العالية قال : « أدركتُ ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ ، كلهم يخاف النفاق على نفسه .[1]

ولهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم : أنا مؤمن إن شاء الله . ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدّى ، ويتوبون من ذلك . وهذا مشروع للأنبياء والمؤمنين . كان النبى ﷺ يستغفر بعد الصلاة ثلاثاً.[2]

وقال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران ١٧] . قالوا : كانوا يُحيُون الليل صلاةً ، ثم يقعدون فى السَّحَر يستغفرون ، فيختمون قيام الليل بالاستغفار .

وقال تعالى : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكـروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالّين * ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [البقرة ١٩٨ - ١٩٩] وقال تعالى : ﴿ إذا جاء نَصْرُ الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبِّح بحمد ربِّك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ [النصر ١ - ٣] .

* لم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات :

فإن قيل : قد قال تعالى : ﴿ وتـوبـوا إلـى الله جميعاً أيُّها المؤمنون لعلكم تُفلحون ﴾ [النور ٣١] وفى المؤمنين من لا ذنب له ، فيكون أمره بالتوبة أمراً بالتوبة من الحسنات ، وكذلك توبة الأنبياء وهم معصومون ؟ .

(١) رواه البخارى (١٩/١) .

(٢) رواه مسلم (٥٩١) .

قيل : هذا من أعظم الفرية ، ولم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات ، وهى مأمر به من طاعته وطاعة أنبيائه . وليس فى المؤمنين إلا ومن له ذنب من ترك مأمور أو فعل محظور ، كما قال ﷺ « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .(١)

وقد قال تعالى : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم مايشاءون عند ربهم ذلك جزاءُ المحسنين * ليكفّر اللهُ عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾ [الزمر ٣٣ - ٣٥] .

وقال تعالى :﴿ أولئك الذين نتقبلُ عنهم أحْسَنَ ماعملوا ونتجاوزُ عن سيئاتهم فى أصحاب الجنّة وَعْدَ الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾ [الأحقاف ١٦] .

*** أصل هذه المقالة هو دعوى العصمة فى المؤمنين :**

وأصل هذه المقالة ، وهو دعوى العصمة فى المؤمنين وما يشبه ذلك ، من أقوال الغالية من النصارى وغالية هذه الأمة ، وابتدعها فى الملّتين منافقوها .

*** غلو النصارى فى هذه الدعوى :**

قال الله تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ [النساء ١٧١] .

وقال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل ﴾ [المائدة ٧٧] .

وقال تعالى : ﴿ ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربّانيّين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمرَكم أن تتخذوا الملائكة والنبيِّين أرباباً أيأمرُكم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ [آل عمران ٧٩ - ٨٠] .

*** غلو اليهود فى هذه الدعوى :**

وقال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عُزَيْرٌ ابنُ اللّه وقالت النّصارى المسيحُ ابنُ اللّه ذلك قولهم بأفواههم يُضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم اللّه أنى يُؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورُهبانهم أرباباً من دون الله والمسيحَ ابْنَ مريم وما أُمِروا إلا

(١) حديث حسن . رواه الترمذى (٢٤٩٩) وغيره ، وتقدم .

ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عمّا يشركون ﴾ [التوبة ٣٠ - ٣١] . وقد روى فى حديث عدى بن حاتم عن النبى ﷺ قال : قلت يارسول الله : ماعبدوهم ؟ قال : « أحلّوا لهم الحرام فأطاعوهم ، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم »[1] . وهذا الغلو الذى فى النصارى حتى اتخذوا المسيح وأمّه إلهين من دون الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله - قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولص الذى كان يهودياً فأسلم واتبع المسيح نفاقاً ليلبس على النصارى دينهم ، فأحدث لهم مقالات غالية ، وكثرت البدع فى النصارى : فى اعتقاداتهم وعباداتهم ، كما قال تعالى : ﴿ ورهبانيةً ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوانِ اللّه فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون ﴾ [الحديد ٢٧] .

* غلو الشيعة فى دعوى العصمة :

وكذلك أول ما ابتدعت مقالة الغالية فى الإسلام من جهة بعض من كان دخل فى الإسلام وانتحل التشيع . وقيل : أول من أظهر ذلك عبد الله بن سبأ الذى كان يهودياً فأسلم ، وكان ممن أقام الفتنة على عثمان ، ثم أظهر موالاة علىٍّ . وهو من ابتدع الغلو فى علىٍّ ، حتى ظهر فى زمانه من ادّعى فيه الإلهية وسجدوا له لما خرج من باب مسجد كندة ، فأمر علىٌّ رضى الله عنه بتحريقهم بالنار بعد أن أجّلهم ثلاثة أيام .

---

(١) حديث ضعيف : رواه الترمذى (٣٠٩٥) وقال « غريب » يعنى : ضعيف ، ورواه أيضاً ابن جرير (١٠/٨٠ و ٨١) والبيهقى (١٠/١١٦) والمزى فى تهذيب الكمال (٢/١٠٩٠) عن عدى بن حاتم بإسناد ضعيف ، قال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث » ا هـ . قلت [القائل أبو سليمان جاسم الفهيد الدوسرى صاحب كتاب النهج السديد فى تخريج تيسير العزيز الحميد] : وضعّفه الدارقطنى وجزم الحافظ فى التقريب بضعفه ، وقد رواه ابن جرير (١٠/٨١ و ٨٢) والبيهقى (١٠ / ١١٦) من طريق حبيب بن أبى ثابت عن أبى البخترى عن حذيفة موقوفاً بمعناه ، وسنده ضعيف منقطع ، حبيب مدلّس وقد عنعن وأبو البخترى لم يسمع من حذيفة (جامع التحصيل ص ٢٢٢) والحديث حسّنة الشيخ المحدّث ناصر الدين الألبانى فى غاية المرام (٦) وأحال الكلام عليه إلى تخريجه لأحاديث كتاب « المصطلحات الأربعة » للمودودى ص « ١٨ - ٢٠ غير أننى لم أجده هناك ، فليعلم » انتهى كلام الأخ جاسم الفهيد حفظه الله .

وفى « الصحيح » أن ابن عباس بلغه أن علياً حرّق زنادقة فقال : لو كنتُ أنا لم أحرقهم لنهى النبى ﷺ أن يُعذَّب بعذاب الله ، ولضربتُ رقابهم بالسيف ، لقول النبى ﷺ : « من بَدَّل دينه فا قتلوه »[1] قالوا : وهم هؤلاء ، وقد رووا قصتهم مستوفاة . ورووا أنه أظهر أيضاً سب أبى بكر وعمر حتى طلب علىّ أن يقتله فهرب منه . ولما بلغ علياً أن أقواماً يفضلونه على أبى بكروعمرقال«لاأوتَى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدتُهُ حدَّ المفترى » تحقيقاً لما رواه البخارى فى « صحيحه » عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر . قال : ثم من ؟ قال : ثم عمر . وقد روىذلك عن علىٍّ من نحو ثمانين طريقاً ، وهو متواتر عنه[2] .

وروى هذا المعنى عنه من وجوه مرفوعاً إلى النبى ﷺ ، كما رواه الترمذى[3] ، ورواه الدارقطنى فى كتاب « ثناء الصحابة على القرابة وثناء القرابة على الصحابة » .

وحينئذ ابتُدِعَ القول بأن عليا إمام منصوص على إمامته ، وابتُدِعَ أيضاً القول بأنه معصوم أعظم مما يعتقده المؤمنون فى عصمة الأنبياء ، بل ابتُدِعَ القول بنبوته ، وحدث بإزاء هؤلاء من اعتقد كفره وردته واستحلّ قتله على ذلك من الخوارج ، ومن اعتقد فسقه أو ظلمه من الأموية وبعض أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، ومن لم يعتقد إمامته ولا إمامة غيره فى زمانه ، أو جعل إمامته وإمامة غيره سواء مع اعتقاده فضله وسابقته . فهؤلاء الثلاثة حدثت بإزاء تلك الثلاثة : فالغالية والرافضة والمفضّلة ، بإزاء المكفّرة والمفسّقة والمتوقّفة عن اختصاصه بالإمامة إذ ذاك .

ثم القائلون بأنه إمام منصوص عليه معصوم تفرقوا فى الإمامة بعده تفرقاً كثيراً مشهوراً فى كتب المقالات ، منهم « الإثنا عشرية » الذين يقولون بأن الإمامة انتقلت

---

(١) رواه البخارى (٩/١٨ - ١٩) .

(٢) رواه البخارى (٥/٩) .

(٣) روى الترمذى فى « سننه » (٣٦٥٥ - ٣٦٦١) عدة أحاديث فى مناقب أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، منها مارواه من طريق سليمان بن بلال عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عن عمر بن الخطاب قال : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ » وقال الترمذى : صحيح غريب . قلت : وهو على شرط الشيخين وقد صنف ـ الشيخ عبد القادر بن جلال الدين المحلى الأنصارى (ت ١٠٣٣) رحمه الله ـ ، كتاباً جامعاً ، فى مناقب الصدّيق رضى الله عنه .

بالنص من واحد إلى واحد إلى المنتظر محمد بن الحسن ، الذى يزعمون أنه دخل سرداب سامراء سنة ستين ومائتين وهو طفل له سنتان أو ثلاث ، وأكثر ما قيل خمس . ويزعمون مع ذلك أنه إمام معصوم ، يعلم كل شىء من أمر الدين ، ويجب الإيمان به على كل أحد ، ولا يصح إيمانه إلا بالإيمان به ، ومع هذا فله اليوم أكثر من أربعمئة وأربعين سنة لم يعرف له عين ولا أثر ، ولا سمع له أحد بما يعتمد عليه من الخبر .

وأهل المعرفة بالنسب يقولون : إن الحسن بن على العسكرى ، والده لم يكن له نسل ولا عقب ، واتفق العقلاء على أنه لم يدخل السرداب أحد ، وأجمع أهل العلم بالشريعة على ما دل عليه الكتاب والسنة أن هذا لو كان موجوداً لكان من أطفال المسلمين الذين يجب الحجر عليهم فى أنفسهم وأموالهم حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد ، كما قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رُشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ [النساء ٦] .

وقد بسطنا القول فى بيان فساد هذا فى ذكر ماخاطبنا به الشيعة قبل هذا ، ثم فى كتابنا الكبير المسمى ، « بمنهاج أهل السنة النبوية فى نقض كلام الشيع والقدرية » .

ومن الرافضة من يزعم أن الإمام بعد علىٍّ أو بعد الحسين هو ابن على محمد بن الحنفية وهم « الكيسانية » ، ومنهم طوائف كثيرة ليس هذا موضعها ، إذ ليس فى نحل الأمة أكثر تفرقاً واختلافاً منهم ، فإن أول من ابتدع مقالتهم كان منافقاً زنديقاً لم يك مؤمناً ، ثم انتشرت فى أقوام لم يعرفوا أخبار [المسلمين الأوائل] ولم يقصدوا الزندقة ..

والمقصود هنا أن هؤلاء هم أول من أظهر القول بأن فى المؤمنين من لا ذنب له كما قال هذا السائل ، وادَّعوا عصمة الأئمة الاثنى عشر حتى عن الخطأ فى الاجتهاد ونسيان العلم ، وعن عدم معرفة شىء من العلم ، فقالوا إنهم يعلمون كل شىء ، وادعوا عصمتهم من صغير الذنوب وكبيرها وغير ذلك ، وادَّعوا ذلك فى الأنبياء أيضاً لأنهم أفضل من الأئمة .

* غلو الصوفية :

ولم يقل فى الأمة غيرهم على هذا الوجه . لكن ظهر فى صنفين من الأمة بعضُ بدعتهم : طائفة من النُّسَّاك والعُبَّاد يزعمون فى بعض المشايخ أو فيمن يقولون إنه

ولىّ الله أنه لا يذنب ، وربما عيّنوا بعض المشايخ وزعموا أنه لم يكن لأحدهم ذنب . وربما قال بعضهم : النبى معصوم ، والولىّ محفوظ .

ومن غالية هؤلاء من يعتقد فى بعض المشايخ من الإلهية والنبوة ما اعتقدته الغالية فى علىّ ، ويزعم أن الشيخ يخلق ويرزق ويدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ، ويعبده ويدعوه كما يعبد الله ، ويقول : كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فإنى لا أريده ، ويذبح الذبائح باسمه ، ويصلى ويسجد إلى جهة قبره ، ويستغيث به فى الحاجات كما يُستغاث بالله تعالى .

فأما ضلال هذه الغالية فشرك واضح قد بيناه فى غير هذا الموضع ، فإنه لاتجوز عبادة أحد دون الله ، ولا التوكل عليه والاستعانة به ، ودعاؤه ومسألته كما يُدعى الله ويُسأل الله .

قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زَعَمْتُم من دونه فلا يملكون كَشْفَ الضُّر عنكم ولا تَحْوِيلا * أولئك الذين يَدْعون يبتغون إلى ربهم الوسيلةَ أيهم أقربُ ويرجون رحمتَه ويخافون عذابَه إنّ عذابَ ربك كان مَحْذُوراً ﴾ [الإسراء ٥٦-٥٧] .

وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زَعَمْتُم من دون الله لا يملكون مِثْقَال ذرّةٍ فى السموات ولا فى الأرضِ ومالهم فيهما من شركٍ وماله منهم من ظَهير * ولا تنفع الشفاعةُ عنده إلا لمن أذِنَ له ﴾ [سبأ ٢٢ - ٢٣] .

وقال تعالى :﴿ من ذا الذى يَشْفَعُ عنده إلا بإذنه ﴾ [البقرة ٢٥٥] .

وقال تعالى :﴿ أم اتَّخَذُوا من دون الله شُفَعاءَ قل أوَلَو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يَعْقلونَ * قُل للّه الشفاعةُ جميعاً له مُلْكُ السموات والأرضِ ﴾[الزمر٤٣ - ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ فلا تَدْعُ مع الله إلهاً آخَرَ فتكونَ من المعذَّبين ﴾[الشعراء ٢١٣] .

وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إنّ اللّه هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربِّى وربكم إنه من يُشركْ بالله فقد حَرَّمَ الله عليه الجنة ومأواه النار وماللظالمين من أنصار ﴾[المائدة ٧٢] .

* لا عصمة لأحد بعد الرسول ﷺ :

والمقصود هنا ذكر العصمة ، فقد أجمع جميع سلف المسلمين وأئمة الدين من جميع الطوائف أنه ليس بعد رسول الله ﷺ أحدٌ معصوم ولا محفوظ لا من الذنوب ولا من الخطايا ، بل من الناس من إذا أذنب استغفر وتاب ، وإذا أخطأ تبين له الحق

فرجع إليه ، وليس هذا واجباً لأحد بعد رسول الله ﷺ بل يجوز أن يموت أفضل الناس بعد الأنبياء ، وله ذنب يغفره الله، وقد خفى عليه من دقيق العلم مالم يعرفه. ولهذا اتفقوا على أنه مامن الناس أحد إلا يُؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ وذهب بعض الناس إلى أن قول أبى بكر وحده حُجَّةٌ وإن خالفه عمر ، ثم قول عمر حجة وإن خالفه عثمان وعلى . وأما أئِمة الإسلام فلا يقولون بهذا ، بل تنازعوا فيما إذا اتفق أبو بكر وعمر على قول ، هل يكون حجة ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد . والأظهر فى الموضعين أن ذلك حجة ، لقوله ﷺ : «اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر »[1] وقوله « إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشُدوا »[2] . وقوله « لو اتفقتما على شىء لم أخالفكما »[3] . ولقوله « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن [كل محدثة بدعة] وكل بدعة ضلالة »[4] .

وقد قال « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً »[5] وقد كانت خلافة علىّ تمام الثلاثين مع الأشهر التى تولاها الحسن رضى الله عنه . واتفقوا على أنه ليس من شرط ولى اللّه أن لا يكون له ذنب أصلاً ، بل أولياء الله تعالى هم الذين قال الله فيهم : ﴿ ألا إنَّ أولياءَ اللّه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [يونس ٦٢ - ٦٣] .

---

(١) حديث صحيح : رواه الترمذى (٣٦٦٢) وقال « حسن » وابن ماجة (٩٧) والحاكم (٧٥/٣) وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) رواه مسلم (٦٨١) من حديث أبى قتادة مطولاً وفيه قصة .

(٣) حديث ضعيف « رواه أحمد (٢٢٧/٤) من حديث عبد الرحمن بن غَنْم مرفوعاً بلفظ : « لو اجتمعتما فى مشورة ماخالفتكما » . وقال الهيثمى فى « المجمع » (٥٣/٩) : « رواه أحمد ورجاله ثقات إلا أن ابن غنم لم يسمع من النبى ﷺ ». قلت : وفى إسناده أيضاً « شهر بن حوشب » قال الحافظ فى « التقريب » : صدوق كثير الإرسال والأوهام .

(٤) حديث صحيح : رواه الترمذى (٢٦٧٦) وقال « حسن صحيح » وليس عنده « وإياكم ومحدثات ... » وابن ماجة (٤٣) بغير تلك الزيادة وأبو داود (٤٦٠٧) واللفظ له ، ولأحمد (١٢٦/٤) ومابين حاصرتين سقط من الأصل المطبوع ، فاستدركته من « سنن أبى داود » (٢٠١/٤) « والمسند » . وليس عندهم قوله : « من بعدى » . والله أعلم .

(٥) حديث حسن : رواه أحمد (٢٢٠/٥) وأبو داود (٤٦٤٦ و ٤٦٤٧) والترمذى (٢٢٢٦) وقال « حسن وقد رواه غير واحد عن سعيد بن جمهان » . ولا نعرفه إلا من حديث سعيد بن جمهان ». قلت : هو صدوق . له أفراد كما فى « التقريب ». وصححه الحاكم (٧٣/١) .

ولا يخرجون عن التقوى بإتيان ذنب صغير لم يصروا عليه ، ولا بإتيان ذنب كبير أوصغير إذا تابوا منه .

قال تعالى : ﴿ والذى جاء بالصِّدق وصدَّق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفِّر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾ [الزمر ٣٣-٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ماتُنْهَون عنه نكفِّر عنكم سيئاتكم ونُدخِلكم مُدخَلاً كريماً ﴾ [النساء ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ ولله مافى السموات ومافى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللَّمَمَ إن ربَّك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الارض وإذ أنتم أجنَّة فى بطون أمهاتكم فلا تزكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [النجم ٣١ - ٣٢] .

وقال تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النَّبِىِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتَّبعوه فى ساعة العُسرة من بعد ماكاد يزيغ قُلُوبُ فريق منهم ثم تاب عليهم إنـه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفُسُهُمْ وظنُّوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ [التوبة ١١٧ - ١١٨] .

والفريق الثانى : قوم من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتَّبعهم ، وزعموا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون مما يتاب منه ، وأن أحداً منهم لم يتب عن ذنب ، وحرَّفوا نصوص الكتاب والسنة ، كعادة أهل الأهواء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد فى أسماء الله وآياته .

*** مذهب السلف وأهل السنة هو القول بتوبة الأنبياء :**

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتَّبعهم على ما أخبر الله به فى كتابه(١) وما ثبت عن رسوله ، من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التى تابوا منها ، وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . وعصمتهم هى من أن يُقَرُّوا على الذنوب والخطأ ، فإن مَنْ سِوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب والخطأ مـن غير توبة ، والأنبياء عليهم السلام يستدركهم اللّه فيتوب عليهم ويبين

(١) فى الأصل المطبوع . على ماأخبر الله فى به كتابه . وهو غلط وصوابه ما أثبته .

لهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلا إذا تمنّى ألقى الشيطانُ فى أمنيّتِه فينسخ الله ما يُلقى الشيطانُ ثم يُحكِمُ الله آياتِه والله عليم حكيم * ليجعلَ ما يُلقى الشيطان فتنةً للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبُهُم وإن الظالمين لفى شقاقٍ بعيدٍ ﴾ [الحج ٥٢ - ٥٣] .

وقد ذكر الله تعالى : قصة آدم ونوح وداود وسليمان وموسى وغيرهم ، كما تلونا بعض ذلك فيما تقدم فيما ذكرناه من توبة الأنبياء واستغفارهم ، كقوله : ﴿ فتلقّى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه ﴾ [البقرة - ٣٧] .

وقول نوح : ﴿ ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلاّ تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ [هود - ٤٧] .

وقول إبراهيم : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدىَّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ [إبراهيم ٤١] .

وقوله : ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ [الشعراء - ٨٢] .

وقوله سبحانه : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [محمد - ١٩] .

وقال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مُغاضِباً فظنَّ أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنتُ من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغمِّ وكذلك نُنجى المؤمنين ﴾ [الأنبياء ٨٧ - ٨٨] .

وقال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب * إنا سخّرنا الجبالَ معه يُسبِّحْنَ بالعشىِّ والإشراق ﴾ إلى قوله : ﴿وظنَّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإنَّ له عندنا لزلفى وحُسنَ مآب ﴾ إلى قوله : ﴿ ولقد فتنّا سليمانَ وألقينا على كُرسيِّه جسداً ثم أناب * قال ربِّ اغفر لى وهبْ لى مُلكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعدى إنك أنت الوهّاب ﴾ [ص ١٧ - ٣٥] .

* اليهود فرّطوا فى حق الأنبياء :

ولما كان اليهود ضد النصارى حيث قتلوا الأنبياء وكذّبوهم جحدوا نبوّة داود ، وهم لنبوة سليمان أجحد ، وزعموا أنهما كانا حكيمين ، وأن داود كان مسيحاً . وقد نزّه الله سليمان مما تلته الشياطين على ملكه مما اتبعه السحرةُ من الصابئة والمشركين ومن اتبعهم من أهل الكتاب والمنتسبين إلى هذه الملة. والسامرة أعظم

جحوداً . لا يقرون إلا بنبوة موسى خاصة ، ويوشع بعده .

* الإسلام هو الصراط المستقيم :

والله سبحانه قد هدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم ، كما اختلفت الأمتان فى المسيح ، فقال تعالى :﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ماكان لله أ ن يتخذ من ولدٍ سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ [مريم ٣٤ - ٣٥] .

وكذلك المنحرفون من هذه الأمة قد اختلفوا فى علىّ وغيره كما تقدم ، فتجد أحدهم يغلو فى الرجل العالم والعابد ، حتى يعتقد عصمته ، أو يجعله كالأنبياء أو فوقهم ، أو يجعل لهم حظاً فى الإلهية . وتجد الآخر يقدح فى ذلك ، فربما كفّره أو فسّقه أو أخرجه عن أن يكون من أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون . فالأول يجعل ماصدر منه من اجتهاد وعمل صواباً وإن كان خطأً وذنباً ، والآخر يجعل صدور الذنب والخطأ منه مانعاً من ولايته ووجوب موالاته .

وكلا القولين خطأ موروث عن أهل الكتابين . كما قال ﷺ : فى الحديث المتفق عليه : ـ « لتركبنّ سنن من كان قبلكم حذو القُذّة بالقُذّة حتى لو دخلوا جُحر ضَبّ لدخلتموه . قالوا : اليهود والنصارى قال : فمن ؟ »[1] .

وقد ثبت فى « صحيح البخارى » عن النبى ﷺ أنه قال فى « أم القرآن » : إنها أفضل سورة فى القرآن وإنه لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها ، والقرآن العظيم الذى أعطيه النبى ﷺ[2] حيث قال تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم ﴾ [الحجر - ٨٧] .

وثبت فى « صحيح مسلم » أن اللّه تعالى يقول:« قسمتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ماسأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى . فإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنى علىّ عبدى . فإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجّدنى عبدى . فإذا قال : إياك نعبد

---

(١) رواه البخارى (٩/١٢٦ - ١٢٧) ومسلم (٢٦٦٩) عن أبى سعيد الخدرى وفى الباب عن أبى هريرة رواه أحمد (٨٣٢٢) وابن ماجه (٣٩٩٤) وإسناده صحيح .

(٢) حديث صحيح : رواه الترمذى (٢٨٧٥) وقال « حسن صحيح » وابن حبان (١٧١٤) مختصراً والحاكم (٢/٢٥٨) باختصار صدره وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى وهو كما قالا .

وإياك نستعين ، قال : هذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ماسأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، قال : فهؤلاء لعبدي ، ولعبدي ماسأل »[1] .

وهذه البدع هي وغيرها من البدع لا بد وأن تنافي كمال الإيمان ، وتقدح في بعض حقائقه ، فإن رأس الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

فلا بد من إخلاص الدين لله ، حتى لا يكون في القلب تألّه لغير الله ، فمتى كان في القلب تألّه لغير الله فذاك شرك يقدح في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ولا بد من الشهادة بأن محمداً رسول الله ، وذلك يتضمن تصديقه في كل ماأخبر ، وطاعته فيما أمر به ، ومن ذلك الإيمان بأنه خاتم النبيين ، وأنه لا نبي بعده ، فمتى جعل لغيره نصيباً من خصائص الرسالة والنبوة كان في ذلك نصيب من الإيمان بنبيٍ بعده ورسولٍ بعده ، كالمؤمنين بنبوة مسيلمة والعنسي وغيرهما من المتنبّئين الكذّابين ، كما قال ﷺ « إن بين يدي الساعة ثلاثين دجّالين كذّابين كلهم يزعم أنه رسول الله »[2] .

* عصمة الأئمة تعني مضاهاتهم للرسول :

فمن أوجب طاعة أحد غير رسول الله ﷺ في كل ما يأمر به ، وأوجب تصديقه في كل مايخبر به ، وأثبت عصمته أو حفظه في كل مايأمر به ويخبر من الدين – فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله والمضاهاة له في خصائص الرسالة بحسب ذلك ، سواء جُعل ذلك المضاهي لرسول الله ﷺ بعض الصحابة أو بعض القرابة أو بعض الأئمة والمشايخ أو الأمراء من الملوك وغيرهم .

وقد قال الله في كتابه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء - ٥٩] .

فغاية المطاع بإذن الله أن يكون من أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم من العلماء والأمراء ، ومن يدخل في ذلك من المشايخ والملوك وكل متبوع ، فإن الله تعالى أمر

---

(١) رواه مسلم (٣٩٥) بنحوه .

(٢) حديث صحيح : رواه أحمد (٥٦٩٤ و ٥٦٩٥ و ٥٨٠٨ و ٥٩٨٥) عن ابن عمر بنحوه وفي الباب عن أبي هريرة رواه البخاري (٧٤/٩) ومسلم (١٥٧) .

بطاعتهم مع طاعة رسوله ، كما قال : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، ليبين أن طاعتهم فيما كان طاعة للرسول أيضاً ، إذ اندراج طاعة الرسول فى طاعة الله أمر معلوم ، فلم يكن تكرير لفظ الطاعة فيه مؤذناً بالفرق ، بخلاف مالوقيل : أطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم ، فإنه قد يوهم طاعة كل منهما على حياله .

وقد ثبت عن النبى ﷺ فـى « الصحيح » أنه قال « إنما الطاعة فـى المعروف »[١] وقال : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »[٢]. وقال : « على المرء المسلم الطاعة فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[٣] .

ولهذا قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون باللّهِ واليوم الآخر ذلك خير وأحسنُ تأويلاً ﴾ فلم يأمر عند التنازع إلا بالرد إلى الله والرسول دون الرد إلى أولى الأمر ، ولهذا كان أولو الأمر إذا اجتمعوا لا يجتمعون على ضلالة ، فإذا تنازعوا فالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله لا إلى غير ذلك من عالم أو أمير ومن يدخل فى ذلك من المشايخ والملوك وغيرهم ، ولو كان غير الرسول معصوماً أو محفوظاً فيما يأمر به ويخبر به لكان ممن يُرَدّ إليه مواقع النزاع ، كما يرده القائلون بإمام معصوم إليه ، وكما جرت عادة كثير من الأتباع أن يردّوا ماتنازعوا فيه إلى الإمام والقدوة الذى يقلدونه .

ومعلوم أن علماء الطوائف ومقتصديهم لا يرون هذا الرد واجباً على الإطلاق ، لكن قد يفعلون ذلك لأنه لا طريق لهم إلى معرفة الحق واتّباعه إلا ذلك لعجزهم مما سوى ذلك ، فيكونون معذورين . وقد يفعلون ذلك اتباعاً لهواهم فى محبتهم لذلك الشخص وبغضهم لنظرائه فيكونون غير معذورين ، ولكن من اعتقد من هؤلاء فى متبوعه أنه معصوم ، أو أنه محفوظ عن الذنوب والخطأ فى الاجتهاد ، فذلك مردود

---

(١) رواه البخارى (٩/٧٨ - ٧٩) ومسلم (١٨٤٠) .

(٢) حديث صحيح . رواه أحمد (٥/٦٦) عن عبد الله بن الصامت مرفوعاً بلفظ « لا طاعة لأحد فى معصية الله تبارك وتعالى ». وقال الهيثمى فى « المجمع » (٥/٢٢٦) : «رواه أحمد بألفاظ، والطبرانى باختصار،وفى بعض طرقه : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ورجال أحمد رجال الصحيح » .

(٣) رواه البخارى (٩/٧٨) ، ومسلم (١٨٣٩) وسياقه أقرب لسياق المصنف شيخ الإسلام

عليه بلا نزاع بين أهل العلم والإيمان ولهذا إنما يقول ذلك غلاة الطوائف الذين يغلب عليهم اتباع الظن وماتهوى الأنفس ، وقد غلب على أحدهم جهله وظلمه .

* الغلو فى البشر يؤدى إلى الشرك :

وكما أن الغلو في غير الرسول ﷺ فيه قدح فى منصب الرسول وما خصَّه الله به ، وهو أحد أَصْلَىْ الإسلام ، فكذلك الغلو فى غير الله فيه قدح فيما يجب لله من الألوهية وفيما يستحقه من صفاته . فمن غلا فى البشر أو غيرهم فجعلهم شركاء فى الألوهية أو الربوبية فقد عدل بربه وأشرك به وجعل له نداً ، ومن زعم أن الله ذمّ أحداً من البشر أو عاقبه على ما فعله ، ولم يكن ذلك ذنباً ، فقد قدح فيما أخبر الله به وماوجب له من حكمته وعدله . فالجاهل يريد تنزيه الصحابة أو العلماء أو المشايخ من شىء لا يفيدهم ولا يضرهم ثبوته فيقدح فى الرسول أو فى الله تعالى ، ويريد تنزيه الأنبياء عما لايضرهم ثبوته ، بل هو رفع درجة لهم ، فيقدح فى الربوبية ، فتدبر هذا فإنه نافع .

* بطلان القول بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب :

والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها ، وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء كالروافض والمعتزلة ، وحجتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم الذين قال الله فيهم : ﴿ ليجعل مايُلقى الشيطان فتنةً للذين فى قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبُهُم وإنَّ الظَّالمين لفى شقاقٍ بعيدٍ ﴾ [الحج ٥٣] .

وعمدة من وافقهم من الفقهاء أن الاقتداء بالنبى ﷺ فى أفعاله مشروع ولولا ذلك ما جاز الاقتداء به وهذا ضعيف ؛ فإنه قد تقدم أنهم لايُقَرُّون، بل لابد من التوبة والبيان . والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر ، فأما المنسوخ والمنهىّ عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالاتفاق . فإذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها ، فالأفعال التى لم يُقر عليها أولى بذلك .

* تفضيل مذهب أهل السنة فى ذلك :

وأما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة والجماعة القائلين بما دلَّ عليه الكتاب والسنة من توبة الأنبياء من الذنوب ، فقد ذكرنا من آيات القرآن مافيه دلالات على ذلك . وفى « الصحيحين » عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ أنه كان يدعو :

« اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى جِدِّى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى . اللهم اغفر لى ماقدَّمتُ وما أخَّرتُ ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أنت أعلم به منى . أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، وأنت على كل شىء قدير »[1] .

وفى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى استفتاح الصلاة : « اللهم أنت الملك لا شريك لك ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها فإنه لا يصرف عنى سيئها إلا أنت » قال : ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لى ماقدَّمتُ وماأخَّرت ، وماأسررت وماأعلنت ، [وما أسرفت] وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر ، لا إله إلا أنت »[2] .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتةً ، فقلت : بأبى وأمى يارسول الله ، إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : « أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقِّنى من الخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدَّنس ، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد »[3] .

وفى «الصحيحين » عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول، فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى » يتأول القرآن[4] .

وفى «الصحيح » أيضاً عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى سجوده : « اللهم اغفر لى ذنبى كُلَّه ، دِقَّه وجِلَّه ، وأوَّله وآخره ، وعلانيته وسرَّه ، وقليله وكثيره »[5] .

---

(١) رواه البخارى (٨/١٠٥) ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له .

(٢) رواه مسلم (٧٧١) وعنده بعد قوله « أنت الملك » ، لا إله إلا أنت » وسقط من الأصل المطبوع قوله « وما أسرفتُ » فاثبتها بين حاصرتين .

(٣) رواه البخارى (١/١٨٩) ومسلم (٥٩٨) واللفظ المرفوع للبخارى .

(٤) رواه البخارى (١/٢٠٧) ومسلم (٤٨٤) .

(٥) رواه مسلم (٤٨٣) وليس عنده « قليله وكثيره » .

وقد تقدم قوله فى الحديث الصحيح : « إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »[١] .

وقوله : « يأيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة »[٢]

وقوله : « إنه ليُغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »[٣] .

وتقدم أيضاً أنهم كانوا يعدون لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التوّاب الغفور مائة مرة »[٤] .

وفى « الصحيحين » عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ إذا قفل من غزو أو حجّ أو عُمرة يُكبِّر على كلّ شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ثم يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيئ قدير . آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده »[٥]

وفى السنن عن علىٍّ أنه أُتِىَ بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الرِّكاب قال : « بسم الله » ، فلما استوى على ظهرها قال : « الحمد لله » ، سبحان الذى سخَّر لنا هذا وماكنا له مُقْرِنين ، وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون » ثم قال : « الحمد لله - ثلاثاً - سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ثم ضحك ، فقيل : مِنْ أى شىء ضحكت ياأمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضحك ، فقلت : من أى شىء ضحكت يا رسول الله ؟ فقال : « إن ربَّك ليعجب من عبده إذا قال رب اغفر لى ذنوبى ، يقول : يعلم أن الذنوب لا يغفرها أحد غيرى »[٦] .

---

(١) رواه البخارى ، وتقدم .

(٢) رواه مسلم ، وتقدم .

(٣) رواه مسلم ، وتقدم .

(٤) حديث صحيح ، رواه أحمد وغيره ، وتقدم .

(٥) رواه البخارى (١٠٢/٩) ومسلم (١٣٤٤) واللفظ للبخارى .

(٦) حديث صحيح : رواه الترمذى (٣٤٤٦) وقال « حسن صحيح » وأبو داود (٢٦٠٢) وعنده : « ثلاث مرات » بدلاً من « ثلاثاً » وزاد أيضاً بعدها « ثم قال : الله أكبر ثلاث مرات » وسياقه أقرب لسياق المصنف شيخ الإسلام

المحتوى | صفحة